أخي المسلم..

هل أنتَ إنسان؟!

د. محمود يوسف السماسيري

الأمين العام للمجمع الدولي لإعادة بناء الفكر الإسلامي

سلسلة نحو بناء مسلم إنسان (1)

أَخِي الْمُسْلِمُ..

هَلْ أَنْتَ إِنْسَانٌ؟!!

د. محمود يوسف السماسيري
الأمين العام للمجمع الدولي لإعادة بناء الفكر الإسلامي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(الروم:30)

من قبيل الاعتذار.. لا الإهداء

إذا كان ديدن أي مؤلف أن يبدأ كتابه بالإهداء.. فأنا أبدأ بالاعتذار لك أيها القارئ الكريم.. عما قد يومئ إليه عنوان كتابي هذا من اتهام صادم.

غير أني آمل أن يتلاشى شعورك بهذا الاتهام عندما تفرغ من صفحاته.. مستسمحك حينها أن تقبل مني الاعتذار.

المؤلف

مقدمة

عبر فترات طويلة من الزمن داهمت عقلى تساؤلات عدة عن علة تلك السلوكيات الشائنة التي يقترفها بعض أبناء أمتنا - أمة الإسلام العظيم- جهارًا نهارًا، وهي تلك التي تتجلى في الكذب والغش والتدليس والخداع، والواسطة، والمحسوبية، والرشوة، واستباحة المال العام والخاص، والخوض في الأعراض واستباحتها، وإعلاء المصلحة الخاصة على مصالح الآخرين، بل وعلى المصلحة العامة، وإن كانت مصلحة الأمة بأسرها.. وتكاسل في طلب العلم، وغياب للجدية والإتقان في العمل، وميل للدعة والكسل.. ثم التباهي والكبر والبطر بامتلاك ما لم تنتجه أيديهم أو تبدعه عقولهم!! وإنما بما كد وأبدع في إنتاجه أبناء بلدان الغرب والشرق... وغير ذلك الكثير والكثير من السلوكيات الشائنة التي يطول في ذكرها المقام، والتي أصابت بلداننا بالضعف والتخلف في مضمار التسابق الحضاري مقارنة بتلكم البلدان.

ولا ريب أن تفشي كثير من تلكم السلوكيات الشائنة بين من يدعي الإيمان بدين جاء بمكارم الأخلاق كلها هي أمور تجعل الحليم منا حيرانَ .. لا سيما عندما نجد أن القرآن الكريم يحدد لنا بشكل قاطع من هم ﴿الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ في قوله تعالى الذي يبدأ بـ (إنما) أداة الحصر مع القصر والتوكيد ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال:2-4)

وهل يمكن بعد هذه الآيات التي تقرر لنا من هم ﴿الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أن نقول: إن الإسلام يقبل أن ينتمي إليه من يقترف الموبقات التي لا يُعقل أن تجتمع مع الخوف والوجل من الله – تعالى- في قلب واحد أبدًا.. بمعنى آخر هل يمكن أن نصف إنسانًا لا يتورع أن يرتكب مثل هذه الموبقات أنه إنسان مسلم بحق ؟!! [1]

بيد أن حيرتنا تلك تصبح أكثر شدة عندما نشاهد كثيرًا ممن يمارسون هذه السلوكيات التي تتنافى مع بدهيات الإسلام تكتظ بهم المساجد في أيام الجمع، وربما في صلوات الجماعة، وتمتد موائد الرحمن في شوارع رمضان من صدقات أموال بعضهم، ونبتهج حينما نراهم يحجون ويعتمرون، على أمل منا أن يعود

[1] - الفرق بين الإسلام والإيمان من المسائل التي أطال العلماء في بيانها في كتب العقائد ، وحاصل ما يقررونه في هذا : أنه إذا ورد أحد هذين اللفظين مفردًا عن الآخر فالمقصود به دين الإسلام كله ، ولا فرق حينئذ بين الإسلام والإيمان. وأما إذا ورد هذان اللفظان معًا في سياق واحد ، فالإيمان يراد به : الأعمال الباطنة، وهي أعمال القلوب كالإيمان بالله تعالى وحبه وخوفه ورجائه سبحانه وتعالى والإخلاص له. وأما الإسلام : فيراد به الأعمال الظاهرة التي قد يصحبها الإيمان القلبي ، وقد لا يصحبها فيكون صاحبها منافقًا أو مسلمًا ضعيف الإيمان" . مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين" (1/47-49)

المرء منهم نقيًّا صافيا كما ولدته أمه، إلا أنه هيهات هيهات .. فذلك يبدو أملًا بعيد المنال!!

وإذا ما تحلى أحدنا بالشجاعة وسأل واحدًا من هؤلاء: كيف تجمع بين هذه المتناقضات دون أن ترى في ذلك غضاضة، ولا مدعاة حتى للحياء أو الخجل من ربك الذي تقف بين يديه مرات خمس كل يوم، تُقر فيهن أنك تعبده وحده بقولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، أيّ وحدك نطيع دونما شريك من هوى، أو مصلحة، أو سلطان، أو زوج، أو والد، أو ولد، أو غير ذلك ممن تسعى وتكد وتتخطى أوامر خالقك ونواهيه من أجل تلبية رغباتهم وأوامرهم ونواهيهم.. أو حتى دون الخجل من الناس الذين تتكشف عورات سلوكك أمامهم؟!!

إذا ما تشجعت وطرحت مثل هذا السؤال.. سوف يصفعك بإجابة معلبة وجاهزة – هذا إن أقر أساسًا أن ما يفعله هو أمر يغضب الله تعالى- "يا أخي إن الله غفور رحيم" – دون أن يكون لديه علم حقيقي بشروط مغفرة الله تعالى ورحمته- ثم يُردف.. ألم تسمع يا أخي قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: من الآية53)؟!

أما فيما يتعلق بالخجل من الناس فسوف يُجيبك بتحدٍ: كيف لي أن أخجل منهم، وسلوكي أفضل من سلوك أكثرهم؟! فأنا لا أكاد أقترف من بحر ما يقترفه الآخرون ممن يتمسحون بالدين قطرة... وإذا كنت تتهمني بالرشوة؛فاتهامك باطل؛ فإنما أسترد جزءًا من حقي الذي حرمتني الدولة إياه عندما قررت منحي راتبًا هزيلًا لا يقيم أَوَدي أنا وأسرتي، ولا يكافئ كدي وجهدي،

وإن كنت تراني أستبيح شيئًا من المال العام.. فأين أنا ممن ينهبونه ليل نهار؟!

وهكذا ثمة حجج ومبررات لا تنتهي.. فهو يرى نفسه- ولأنه أقل إفسادًا من غيره- من زمرة المصلحين!!!

وإن سألته عن علة بغيه وظلمه لغيره من الأفراد، أو ما إلى ذلك من السلوكيات الشائنة التي يقترفها؛ والتي تتنافى مع مكارم الأخلاق.. فلن يعدم تلكم الحجج التي تجعله يرى إدانتك له ظلمًا مبينًا!!

ومما يجعل حيرة الحليم تشتد وتشتد.. أنك ترى على شاطئ العالم الآخر في بلدان الغرب المتقدم؛ التي تخلى جُل أبنائها حتى عن إيمانهم بالمسيحية، أو حتى تلكم البلدان التي تعتنق ديانات وثنية، وعلى رأسها اليابان... ترى أن أغلب أبناء هذه البلدان لا يكادون يقترفون ما قد يستحل اقترافه كثير من أبناء الإسلام من تلك الموبقات شيئا، فجُلهم لا يعرفون في مسالكهم الكذب، أو الخداع، أو الغش، أو التدليس، أو الواسطة والمحسوبية، أو الاعتداء على أعراض الآخرين وممتلكاتهم، أو الكسل أو الاتكالية، أو البطر، أو الكبر، أو الرياء.. أو ما إلى ذلك من سلوكيات يندى لها جبين مكارم الأخلاق.

أمام هذه الوضعية المنقلبة رأسا على عقب، والتي تحير عقل كل حليم.. نجد أن ثمة تساؤلًا بدهيًا لا بد أن يطرحه العقل السوي ألا وهو: ما علة تفشي تلكم السلوكيات الشائنة بين كثير من أبناء البلدان الإسلامية، وضعف تفشيها بين أبناء

البلدان الغربية، وغيرها من البلدان المتقدمة التي لا يكاد يظهر فيها للدين أثر؟!

ولعل من أشهر الإجابات التي طُرحت على هذا التساؤل البدهي وأبسطها والتي تم تداولها بين كثير من المسلمين، ما تلخصه المقولة الشهيرة التي نسبت للشيخ "محمد عبده" بغير حق- كما أكد لي أستاذي المفكر الإسلامي الدكتور "محمد عمارة" والذي حقق أعمال محمد عبده كاملة- من أنه قال عندما عاد من الغرب: "وجدت هناك إسلامًا بلا مسلمين، ووجدت هنا مسلمين بلا إسلام". أي أن العلة في ذلك هو تسيّد أخلاق الإسلام سلوك أبناء العالم الغربي الذين لا يقرون بالإسلام دينًا، وانهزامها بين من يعلنون ويقرون ويشهدون كل صلاة أنهم من أتباع هذا الدين وحماته.

والواقع أن التسليم بصحة هذه الإجابة يطرح تساؤلًا إنكاريًّا ألا وهو: إذا كان ما وصل إليه جل أبناء الغرب من رقي وتقدم مرجعه إلى استمساكهم بما انتقل إليهم من الأخلاق الإسلامية، عبر احتكاكهم بالعالم الإسلامي وبعلومه الإسلامية منذ قرون خلت، فما ذلكم الشيء الذي يحول دون تلكم الأخلاق ودون استمساك أصحابها المسلمين بها؟!!

وإن كانت الإجابة المنطقية على هذا التساؤل تجعل النفي التام لتأثر أبناء الغرب بأخلاقيات الإسلام هو أمر يصعب أن يدعيه أحد، إلا أن الجزم بأن الإسلام هو علة تفشي تلكم الأخلاقيات السوية بينهم هو أمر لا يقبله عقل أيضًا. فكيف يكون صدى الصوت أكمل وأجمل من الصوت نفسه.. ونحن

لدينا صوت الإسلام نفسه.. وما لامس أسماعهم منه إلا الصدى؟!!

وإذا كان البحث عن فهم ناجع لعلل الخلل الذي جعل الأخلاق الشائنة -التي يأنف من اقترافها من لا دين لهم تشوب سلوكيات مسلمين كُثر - قد دفع كثيرًا من علماء الإسلام ودعاته للتساؤل عن علل ذلكم الخلل، والاجتهاد في تقديم إجابات عدة لها.. فإن هم كتابنا هذا لا ينصب على التساؤل عن تلكم العلل، وتقديم إجابة جديدة لهذا التساؤل، وإنما ينصب على تقديم إجابة عن تساؤل يتعلق بالنتائج التي يخلفها هذا الخلل على سمات الإنسان المسلم .. هذا التساؤل هو:

هل يمكن وصف من يقترف تلكم الأخلاقيات الشائنة بأنه إنسان مسلم أو "مُؤمن" بحق في ضوء ما اشترطته الآيات التي ذكرناها سلفًا حول سمات ﴿الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؟

وحتى تتسنى لنا الإجابة على هذا التساؤل الضخم فلا بد من تفكيكه إلى تساؤلات ستة.. ألا وهي:

1- ما الأخلاقيات الإنسانية التي يجب أن يتسم بها سلوك أي شخص- مسلم أو غير مسلم- حتى يمكن وصف سلوكه هذا بأنه سلوك إنساني بحق؟

2- إذا لم يتسم سلوك هذا الشخص بتلكم الأخلاقيات الإنسانية.. هل يعقل أن نصف سلوكه حينها بأنه سلوك إنساني؟!

2- إذا كانت الإجابة لا.. فما الوصف الذي يليق به حينئذ؟

4- هب أن شخصًا لا دين له يتحلى سلوكه مع أقرانه بالأخلاق التي تجعله جديرًا أن يوصف بأنه سلوك إنساني بحق.. هذا الشخص قرر أن يعتنق الإسلام دينًا.. هل سيضيف إسلامه لأخلاقه شيئًا جديدًا يعلو الأخلاق الإنسانية السوية التي يتعامل بها مع أقرانه.. أم لا؟

5- إذا كانت الإجابة: نعم .. فما هي تلك الإضافة؟

6- إذا لم تتجل هذه الإضافة في سلوك ذلك الشخص على نحو يجعله يسمو درجات عن السلوك الذي تأمر به الأخلاق الإنسانية السوية التي كان يُلزم بها نفسه قبل اعتناقه الإسلام.. فهل يمكن أن يحمل ادعاؤه أمام أقرانه أنه أصبح إنسانًا مسلمًا فارقًا ذا دلالة بالنسبة لهم؟ بمعنى آخر هل يمكن وصف أخلاق هذا الشخص التي لم يُضف الإسلام إليها شيئًا ذا دلالة أنها أخلاق إنسان مسلم بحق؟

وحتى تكون إجابتنا عن تلكم التساؤلات أكثر وضوحًا، فلا محيص لدينا من الاجتهاد في طرح إجابة منطقية ناجعة لها.. قد تكون إجابة جافة يشوب عرضَها قدر من الصعوبة .. إلا أن حاجتنا لأن تكون إجابة قابلة لأن يسلم العقل السوي بها تضطرنا إلى ولوج هذا المسلك.

كما أن حاجتنا لأن تكون تلك الإجابة شاملة لسلوك الإنسان المسلم كله تُلزمنا ألا يقف حكمنا على مدى سلامة سلوكه هذا- عند الشق الذي يتعامل فيه الإنسان المسلم مع الوجود من حوله باعتباره كيانًا مستقلًا يفعل ما يراه محققًا لمصالحه الخاصة، وإنما تُلزمنا أن يمتد هذا الحكم إلى الشق

الآخر من حياته؛ والذي يتعلق بتعامله مع الوجود من حوله باعتباره عضوًا "لبنة" في جماعة أو مؤسسة معينة، يسعى في سلوكه لتحقيق مصلحة هذه الجماعة أو تلك المؤسسة التي ينتمي إليها[2]

وتتطلب الإجابة عن التساؤلات الستة السالفة التعرف على السمات الأخلاقية التي يمتلكها الإنسان- أي إنسان وتسبق كونه مسلمًا أو غير مسلم- والتي تمنحه صفة الإنسانية التي تميزه عن غيره من الكائنات الحية التي تقطن هذا الكوكب. والوصف الذي يليق به إذا ما تخلى في مسالكه عن تلكم السمات التي تمنحه صفة الإنسانية. ثم التعرف على السمات الأخلاقية التي يُضيفها الإسلام على إنسانية هذا الشخص، وتجعله - من ثم- يتميز عن غيره من الناس بكونه يتصف بـ "الإنسانية" و"الإسلام" معًا في الوقت نفسه، على نحو يُمكّن في النهاية من وصفه بأنه "مسلم بحق".

2 - نقصد بالجماعات تلك التي يجد المرء نفسه عضوًا فيها بحكم الميلاد، وهي جماعة الأسرة والعائلة والقبيلة والعشيرة والجماعة العرقية والجماعة المذهبية، ونقصد بالمؤسسات تلكم الوحدات التي يصنعها الإنسان؛ مثل المؤسسات الاقتصادية، أو الاجتماعية أو الإدارية أو السياسية أو الدينية أو الإعلامية، وغيرها من المؤسسات الحكومية أو الخاصة التي يتم تأسيسها لأداء مهام جوهرية، أو ثانوية لا محيص عنها لبقاء أي مجتمع أو تقدمه.

وعبر صفحات كتابنا هذا نستعرض تلكم السمات الأخلاقية في أقسام أربعة؛ يتعلق الأول منها بالسمات الأخلاقية التي تمنح شخصًا ما وصفه بالإنسانية عن جدارة. والثاني والثالث يتعلقان بالوصف الذي يليق بهذا الشخص حينما يتخلى عن السمات الأخلاقية التي تمنحه صفة الإنسانية تلك. والرابع يتعلق بالسمات الأخلاقية التي يُضيفها الإسلام على إنسانية الإنسان، ويجعله يستحق، حينها، أن يوصف بأنه "إنسان" و"مسلم" في الوقت ذاته..

آملين أن تقدم لك قارئنا الكريم صفحات كتابنا هذا المعايير الرئيسة التي تمكنك من التعرف على الشروط التي يجب توافرها في سلوك أي مسلم.. حتى يكون جديرًا أن تصفه بأنه إنسان مسلم بحق.

محمود السماسيري

مكة المكرمة

في 15 ربيع الثاني 1437

القسم الأول

السمات التي تمنح شخصًا ما وصفه بالإنسانية عن جدارة

بالطبع لا نقصد هنا بالسمات التي تمنح شخصًا ما صفة الإنسانية عن جدارة تلكم السمات البيولوجية "الحيوية" التي تميزه عن الكائنات الحية التي تشاركه الحياة على ظهر هذا الكوكب، وإنما نقصد تلكم السمات الأخلاقية التي تنعكس على سلوكه كإنسان، على نحو يجعل هذا السلوك سلوكًا مغايرًا لسلوك هذه الكائنات الحية. حتى تلك الحيوانات التي قد يتشابه معها في سمات بيولوجية عديدة.

وتتطلب معرفة تلكم السمات الإنسانية أن نجيب عن التساؤلات الثلاثة الأولى من التساؤلات الستة سالفة الذكر؛ والتي تتعلق بالأخلاقيات الإنسانية التي يجب أن يتسم بها سلوك شخص ما- مسلم أو غير مسلم- حتى يمكن وصف سلوكه هذا بأنه سلوك إنساني بحق. ومدى سلامة وصف من لا يتسم سلوكه بها بأنه سلوك إنساني، والوصف الذي يليق به حينئذ.

وحتى نجيب عن التساؤل المتعلق بالسمات الرئيسة التي تجعل سلوك إنسان ما سلوكًا إنسانيًا بحق؛ فلا بد أن نضع في حسباننا- بداية- بدهية أن السمة الرئيسة التي تميز الإنسان عن الحيوانات، هو أنه كائن له عقل قادر على أن يرشده لكيفية التصرف في كل سلوك يصدر عنه، في ضوء إدراك متكامل للنتائج العاجلة أو الآجلة التي تنجم عن هذا السلوك على نفسه وعلى الآخرين من حوله؛ سواء تجلى ذلك السلوك في صورة قول أو فعل أو شعور.

بينما تقف حدود عقلانية الحيوان- إن جاز لنا التعبير- عند إرشاده لكيفية التصرف في كل سلوك يصدر عنه إلى السبل التي

تجعل سلوكه هذا قادرًا على تحقيق أهدافه الآنية، بغض النظر عن نتائج هذا السلوك اللاحقة على نفسه أو على الآخرين من حوله.

غير أن أهم ما يميز عقلانية الإنسان- أي إنسان- ليس كونها ترشده فقط لكيفية تحقيق سلوكه للهدف الذي يصبو إليه، وإنما كونها تلزمه بالتحلي بالمبادئ الأخلاقية الفطرية التي تحدد غايات وملامح أي سلوك يسلكه مع غيره من بني جنسه.

ونقصد هنا بالمبادئ الأخلاقية الفطرية: تلكم المبادئ التي تعد قاسمًا مشتركًا بين البشر جميعًا، وتستمد فطريتها من كونها مركوزة في كل نفس بحكم انتمائها إلى الجنس البشرى.. على نحو يجعل كل إنسان يتمنى- بل يجد أن ثمة التزامًا أخلاقيًّا على كل بني جنسه- أن يتحلوا بها في سلوكهم معه- مهما علت مكانتهم مكانته- سواء تمثل سلوكهم هذا في صورة (فعل) أو (قول) أو (شعور).

وهو ما يعني أنه إذا ما سمح له عقله أن يتجاوز سلوكه تلكم الأخلاقيات، فهو هنا سماح يُخرجه، بديهة، عن أخلاق الفطرة الإنسانية السوية، التي يُحتّم عقله- مناقضًا بذلك نفسه- على غيره من البشر أن يتحلوا بها عند التعامل معه. ويرى في تجاوزهم لها تجاوزًا لفطرتهم الإنسانية السوية.

وحتى يمكن وضع اليد على تلكم الأخلاق الفطرية التي يعد سماح عقل المرء منا لصاحبه الخروج عنها خروجًا عن فطرته الإنسانية السوية- ناهيك عن كونه خروجًا قبل ذلك عن العقلانية- نضرب هنا مثالًا:

هب أن شخصًا اسمه "زيد" كان يعد وجبة غذاء، وترك باب بيته مواربًا ليتمكن صديقه "سعد" الذي وعده أن يتناول معه الطعام من الدخول وقتما أتى، وبالفعل وضع زيد- من بين ما وضع- على المائدة دجاجة مشوية، ثم دلف إلى المطبخ ليكمل إعداد المائدة، وأثناء خروجه فوجئ بقط غريب قد تسلل عبر الباب الموارب يخطف الدجاجة، ويجري مسرعًا إلى خارج الدار على نحو لا يمكن اللحاق به.

ثم هب أن نفس الحدث الذي حرم زيدًا دجاجته كان بطله هذه المرة إنسان اسمه عمرو؛ استغل- أيضًا- فرصة الباب الموارب؛ فخطف دجاجة زيد وجرى مسرعًا، دون أن يتمكن زيد من اللحاق به أيضًا.

السؤال هنا: هل يمكن أن يكون شعور زيد المنكوب في دجاجته حيال القط والإنسان واحداً؟!

الإجابة محال.. ففي حالة القط؛ لا ينبغي لزيد أن يلوم إلا نفسه عندما أخطأ التقدير وترك الباب مواربًا؛ لأن زيدًا لا يمكن أن يتوقع من هذا القط الغريب سوى ذلكم الفعل، وفطرته تسمح له بذلك تمامًا.. إلا أن ارتكاب إنسان سوي العقل لذات الفعل، هو عمرو، أمر يصيب زيدًا بالحنق والغضب على هذا السارق؛ على نحو يجعله يصب عليه أقسى اللعنات.

السؤال.. لماذا؟ الإجابة: لأن عقلانية عمرو كإنسان يُفترض أن تلزمه باتباع الأخلاق الفطرية السوية المركوزة في نفسه، والتي تجعله يشعر بالظلم عندما يعتدي زيد- أو أي شخص آخر- على شيء مما يمتلك، وهو ما يعني أن عمرو هنا، وعندما سمح له

عقله أن يقوم بهذا الفعل الذي لا يرتضي لأي شخص أن يقترفه في حقه، قد خرج عن مقتضيات العقلانية الإنسانية السوية، والتي يجب أن تُلزمه بالأخلاق الفطرية، التي ينتظر من كل أقرانه من بني البشر أن يتعاموا معه على هداها، وأدخل نفسه في دائرة عقلية أخرى لا تهدي صاحبها إلا لكيفية تحقيق نفع ذاتي آني أو دفع ضرر حال، ولا ترى في الاعتداء على الآخرين نقيصة أخلاقية، ولا تبالي بمشاعرهم ولا مصالحهم، طالما تعارضت مع مصالحها الذاتية الآنية. ألا وهي العقلية التي تهتدي بها الفطرة الحيوانية، والتي سمحت للقط- سالف الذكر- أن يخطف دجاجة زيد، وهي نفسها التي تسمح لقط آخر أقوى أن يستولى قهرًا على نفس الدجاجة من القط الذي خطفها من مائدة زيد، دونما شعور بالذنب.. نعم سينتاب قط زيد الضعيف شعور بالقهر؛ إلا أن هذا القط الضعيف نفسه لن يتوانى- إن سنحت له الفرصة- عن اغتصاب ما يمتلكه قط ثالث أكثر منه ضعفا!!

وهكذا؛ إنها فطرة قائمة- في مجملها- على استخدام قدراتها العقلية المحدودة في كيفية الاهتداء لسبل تحقيق النفع اللحظي للذات، ودفع الضرر الآني عنها؛ حتى ولو خلّفَ ذلك النفع اللحظي ضررًا دائمًا يحيق بالآخرين، أو يحيق بها هي نفسها بعد حين.

وهنا لنا أن نتساءل: إذا كان ذلكم السلوك الذي ارتكبه عمرو يتنافى مع الفطرة الإنسانية السوية، ويدخل به في نطاق ما تسمح به الفطرة الحيوانية.. على نحو يثير عليه حنق زيد وسخطه، فكيف يمكن لزيد أن يتجنب الوقوع في أي سلوك

يمكن أن يخرجه من حدود الفطرة الإنسانية السوية، ويعرضه لحنق الآخرين عليه وسخطهم؟ أو بمعنى آخر: هل ثمة معايير رئيسة يمكن أن يهتدي بها زيد لضمان اتفاق سلوكه مع معايير السلوك الذي تفرضه هذه الفطرة الإنسانية السوية؛ بما يجنبه حنق الآخرين وسخطهم، ويجلب له رضاهم وودهم ؟

الإجابة نعم.. ثمة معايير ثلاثة كلية يمكن أن يهتدي بها زيد في تقرير ما إذا كان السلوك الذي يقترفه مع أي شخص يقع في نطاق الفطرة الإنسانية السوية أم يقع في نطاق فطرة أدنى هي الفطرة الحيوانية... ويمكن صياغة تلك المعايير الكلية في صورة تساؤلات ثلاثة كبرى على زيد- وعلى أي إنسان عاقل- أن يطرحها على نفسه، إذا أراد أن يعرف ما إن كان السلوك الذي يسلكه مع غيره من الناس، في أي أمر من الأمور، نابع من الفطرة الإنسانية السوية، أم ينتمي إلى فطرة أدنى.. تلك التساؤلات الثلاثة هي:

- ما الذي أتمنى أن يفعله الآخرون معي؟

-ما الذي أتمنى أن يقوله الآخرون عني؟

- ما الذي أتمنى أن يشعر به الآخرون تجاهي؟

ولما كنا نستطيع الجزم أنه لا يوجد إنسان عاقل على ظهر هذا الكوكب يتمنى- أو حتى يرتضي- أن يعتدي عليه أي شخص من بني البشر، أو يوقع به ما قد يسيء إليه من فعل أو قول أو شعور دونما ذنب جناه، ومهما عَلا قدره. ولو كان هذا الإنسان عبدًا ومن يعتدي عليه إمبراطور... لما كنا نستطيع الجزم بذلك؛ فيمكن أن نقول: إن أي شخص سيجيب على تلك التساؤلات

الثلاثة الكبرى بأن عقله لن يسمح له أن يفعل مع الآخرين، أو يقول عنهم، أو يشعر نحوهم، إلا ما يتمنى أن يفعله الآخرون معه، أو أن يقولوه عنه، أو يشعروا به نحوه... هو شخص عاقل حقًا، ذو فطرة سوية عادلة. ومن ثم فهو شخص يستحق أن يوصف من قبل الجميع أنه إنسان بحق.

ولا مراء أن وصف أي شخص يرى أن ثمة حق على الآخرين أن يفعلوا معه، أو يقولوا عنه، أو يشعروا نحوه بكل ما هو خير ويجنبوه كل ما هو شر، ولا يمارس هو مع الآخرين في فعله أو قوله أو شعوره، ما يرى هو أنه حق عليهم أن يمارسوه معه...لا مراء أن وصف مثل هذا الشخص حينئذ بالإنسانية هو وصف يحمل تجاوزًا عقليًّا جليًّا!!

فأنى يكون إنسانًا سويًّا ذلكم الذي يستبيح لنفسه أن يعتدي بفعله على أنفس الآخرين، أو ذويهم، أو أموالهم، أو أعراضهم... أو على أي شيء يهمهم أمره، ويرى في الوقت نفسه أن أي اعتداء من قبلهم على ذاته، أو ذويه، أو عرضه، أو ماله... أو أي شيء يهمه أمره، هو جريمة مريعة؟!

وأنى يكون إنسانًا سويًّا ذلكم الذي يستبيح لنفسه أن يهين غيره بالقول- تصريحًا أو تلميحًا، في حضورهم، أو غيابهم، أو يستبيح خداعهم، أو غشهم، أو الكذب عليهم، أو المكر بهم... أو غير ذلك من الموبقات التي يرتكبها المرء بلسانه أو ببنانه، ويرى في الوقت نفسه أن أي قول، أو حتى إشارة تُسيء إليه، أو تُحيق به ضررًا.. هي جريمة شنعاء؟!

وأنى يكون إنسانًا ذلكم الذي يستبيح لنفسه أن يشعر نحو غيره بالاحتقار، أو بالحقد، أو الحسد، أو الكراهية، أو الشماتة، أو غيرها من المشاعر المشينة، دونما وجه حق، ويرى في الوقت نفسه أن أي شعور مشين نحوه من قِبل الآخرين هو جريمة نكراء؟!

وهكذا؛ تتجلى لنا المعايير الرئيسة التي تشكل الفطرة الإنسانية السوية، والتي يجب على العقل السوي أن يُلزم صاحبه بها، إذا ما أراد لصاحبه أن يتصف بأنه إنسان بحق ألا وهي: العدالة مع أي طرف إنساني آخر يتعامل_معه في (الفعل) و(القول) و(الشعور)_مهما امتلك من قوة تفوق قوة ذلكم الطرف أو مكانة تعلو مكانته.

وقد أقرت كل الأديان السماوية والوضعية والفلسفات المعتبرة- ومنذ أمد بعيد- هذه الحقيقة دونما استثناء.[3]

---

3 - فقد نصت شريعة حمورابي؛ وهي من أقدم الشرائع المكتوبة في التاريخ البشري، (1780 ق م) على التعامل بالمثل"العين بالعين والسن بالسن".

كما وجدت القاعدة الذهبية بين جميع المدارس الفلسفية الرئيسية في الصين القديمة الطاوية، والكونفوشية. حيث يقول كونفشيوس"لا تفرض على الآخرين ما لا يمكنك أن تختاره لنفسك". ويقول أيضًا "اعتبر أن مكسب جارك هو كسبك الخاص، وخسارة جارك كما لو أنها خسارتك الخاصة". وقد سُئل زي قونغ تلميذ كونفشيوش:"هل هناك كلمة واحدة يمكن أن تكون بمثابة قاعدة لممارسة الحياة؟" فأجاب قائلًا: "أليس المعاملة بالمثل هي الكلمة"؟

وفي مصر القديمة نجد قصة ماعت التي تظهر في قصة الفلاح الفصيح، والتي يعود تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى (2040-1650 ق م) "هذا هو الأمر الآن: عامل الآخر كما هو يعاملك".

وعند الإغريق كانت القاعدة الذهبية"ما تكره أن يصنع لك لا تقم بصنعه". ويقول بيتاكوس(568-640 ق م): "تجنب القيام بأعمال قد تلوم الآخرين على فعلها". ويقول طاليس(546 624 ق م):"ما تكره أن يحصل لك، لا تقم أنت بفعله أيضًا" أما سكستوس فيقول: "لا تفعل للآخرين ما سيثير غضبك إن فعله الآخرون بك". أما إيسوقراتس(436-338 ق م) فيقول: "ما تسعى إلى تجنبه لا تقم بفرضه على الآخرين "

وعند الرومان يقول الكاتب بابيلوس سيروس: "توقع من الآخرين ما فعلته بهم"

أما في الهند فإن غوتاما بوذا(483 – 563) ق م جعل هذا مبدأ من الأركان الأساسية للأخلاق "كما هو أنا هم كذلك، وكما هم أنا كذلك، يجب علي ألا أقتل ولا أسبب للآخرين القتل " وفي سوتا نيباتا: "من يسعى إلى إسعاد نفسه ويضطهد ويستخدم العنف مع الآخرين الذين يرغبون أيضًا في تحقيق السعادة لأنفسهم، لن يحقق السعادة لنفسه في نهاية المطاف". وفي الهندوسية "هذه خلاصة الصلاح الحقيقي:عامل الآخرين بما تحب أن تعامل، ولا تعامل جارك إلاّ بما تحب أن يعاملك به" من كتاب المهابهاراتا. وفي الزرادشتية"إن الطبع الصالح فقط هو الذي لا يعامل الآخرين إلا بما هو في صالحهم" من كتاب داديستني دينيك(5:94) . ولدى السيخية "عامل الآخرين كما تحب أن تعامل". وفي الطاوية "اعتبر كل ما يربحه جارك ربحًا لك، وكل ما يخسره جارك خسارة لك". وفي تراث الجيان الروحي" على الإنسان أن يفكر في معاملة كافة المخلوقات كما يحب أن يعامل" سوراكريتانجا (1:11:33)

وفي التوراة في سفر اللاويين "لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك.أنا الرب"[19:18]. وأيضًا" كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر.أنا الرب إلهكم"[19:34] . وفي سفر طوبيا" وكل من خدمك بشيء فأوفه أجرته لساعته، وأجرة أجيرك لا تبق عندك أبدًا"[4:15] . وفي التلمود "لا تصنع مع الآخرين ما تكرهه أنت، هذه هي الشريعة وما عدا ذلك ليس إلاّ تعليقًا عليها".

وفي العهد الجديد: إنجيل متى " فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم، لأن هذا هو الناموس والأنبياء[7:12] . وفي إنجيل لوقا " وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضًا بهم هكذا" [6:31]

وإذا عدنا إلى صاحبنا زيد الذي يسعى لضبط سلوكه تبعا لمعايير الفطرة الإنسانية العادلة، وافترضنا أن عقله ألزمه بالفعل بتطبيق معاييرها الثلاثة سالفة الذكر في تعامله مع الأفراد الآخرين في فعله وقوله وشعوره، أملًا منه أن يحقق صفة الإنسانية عن جدارة، سوف نجد أن تحقيقه صفة الإنسانية تلك لا يقف فقط عند الشق المتعلق بسلامة تعامله باعتباره فردًا مستقلًا يسعى لتحقيق مصالحة الخاصة مع الآخرين كأفراد مستقلين، أو مع الآخرين كجماعات (أسر، عشائر، قبائل، جماعات عرقية أو مذهبية.. إلخ) أو كمؤسسات(اقتصادية،اجتماعية،سياسية،إعلامية...إلخ) ومع مجتمعه برمته، ومع أفراد، أو مؤسسات، أو جماعات المجتمعات الأخرى... وإنما يمتد- كما أشرنا سلفًا- إلى الشق المتعلق بتعامله

وأيضًا "وإذا ناموسي قام يجربه قائلًا: يا معلم، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟« 26 » فقال له: ما هو مكتوب في الناموس. كيف تقرأ؟«27 » فأجاب وقال: تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك، وقريبك مثل نفسك « 28» فقال له: بالصواب أجبت. أفعل هذا فتحيا". وفي سفر أعمال الرسل ورسالة بولس الطرسوسي إلى أهل غلاطية [5:14] "لأن كل الناموس في كلمة واحدة يكمل:تحب قريبك كنفسك أنا الرب".

وفي الأخلاقيات العالمية الحديثة أُعلنت القاعدة الذهبية في برلمان أديان العالم عام (1993) "يجب أن نعامل الآخرين كما نرغب من الآخرين أن يعاملوننا" وذلك من حيث المبدأ المشترك لأديان كثيرة. وتم توقيع الإعلان الأولي من قبل (143) من ممثلين لجميع الديانات الرئيسية في العالم منها الأديان السماوية الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية)،ومنها الأديان الوضعية مثل البوذية والهندوسية، والسيخية والطاوية، البراهمانية، براهما كوماريس، واليانية،والزرادشتية وغيرهم.

مع الآخرين (أفراد، جماعات، مؤسسات، مجتمعات.. إلخ) عندما يكون عضوًا (عاملًا، موظفًا، مديرًا، رئيسًا... إلخ) في مؤسسة أو جماعة ما .. فهذه العضوية تفقد زيدًا استقلاليته وتفرض عليه دورًا محددًا ينبغي أن يضطلع به، حتى يسهم في تحقيق مصالح هذه المؤسسة أو الجماعة.

ويمكن تفصيل ملامح تلكم المعايير على النحو التالي:

أولا:

السمات التي تمنح سلوك الفرد ككيان مستقل صفة الإنسانية

لا مراء أن التعامل الإنساني لزيد؛ الذي قرر أن يتصف سلوكه بسمات الإنسانية الحقة؛ باعتباره كيانًا مستقلًا يسعى إلى تحقق مصالحة الذاتية، لا يقف فقط عند التزامه بقواعد العدالة الثلاث السابقة في دائرة تعامله مع الأفراد الآخرين في مجتمعه، وإنما يمتد- كما أشرنا سلفًا- إلى التزامه بهذه القواعد في دائرة تعامله مع الجماعات أو المؤسسات التي يتكون منها

المجتمع الذي ينتمي إليه، وفي تعامله مع مجتمعه برمته، وفي تعامله مع أفراد، أو مؤسسات، أو جماعات المجتمعات الأخرى.

ويمكن تلخيص الملامح العامة لهذا التعامل في قاعدة كلية هي: أن يقوم هذا التعامل على تساوي الحقوق التي يطلب زيد من أي طرف من تلك الأطراف أن يمنحه إياها، مع الواجبات التي يُلزمه عقله بتأديتها لهذا الطرف مقابل تلكم الحقوق.

فالتزام زيد بالمعايير الأخلاقية الثلاثة يقتضي ألا يطالب، ولو ضمنيًّا، جماعات أو مؤسسات المجتمع الذي ينتمي إليه، بذل الجهد والوقت لمنحه مقومات الوجود التي يريد (من منتجات وخدمات أساسية وترفيهية لا حصر لها)، إلا إذا كان هو يبذل- بالفعل- جهدًا مقابلًا في منحهم خدمات أو منتجات تكافئ ما بذلوه في إنتاجها من جهود.

بل إن التزامه بهذه المعايير يقتضي منه ألا يستهلك- لعلة أو لأخرى جعلت المال يسيل بين يديه- ما أنفق أبناء مجتمعات الغرب والشرق أعمارهم في اكتشافه واختراعه وإنتاجه، دون أن يبذل كفاحًا مكافئًا لكفاحهم في إنتاج مقومات هذا الوجود الإنساني الرغيد[4].

ولا ريب أن تراخيه في القيام بدور مكافئ لما يقوم به أبناء هذه المجتمعات، التي ينتمي جلهم لمجتمعات غير إسلامية، هو أمر-

---

[4]- اعتمادًا على طفرة مالية ما أصابتنا كأفراد نتيجة لتوزيع الدولة لفائض مادي مؤقت توافر لديها من النفط أو القروض.

قبل أن يحقق لهم تفوقًا عليه، وتحكمًا في مصيره- يقدح في عدالته، ويقدح من ثم في إنسانيته؛ لكونه لم يقدم لهم مقابلًا حقيقيًّا من كد يديه ونتاج عقله، على نحو يسهم في تطورهم، وتقدمهم ،ومنحهم مزيدًا من مقومات الوجود الرغيد.. مثلما فعلوا هم به كذلك.

كما أن هذا الالتزام يقتضي- أيضًا- ألا يُهلك نصيبه من فائض مالي ما حل ببلده فجأة من النفط في عقود قليلة، دون الاجتهاد في تنمية مردود هذا الفائض الطارئ، مما يمثل ظلمًا بينًا لأبنائه وأحفاده الذين لن يرثوا منه إلا الفقر والتخلف والحرمان، على نحو يهدد استمرارية وجودهم ذاته، في ظل عالم ليس للضعفاء فيه موطئ قدم.

كما يقتضي أن يدرك أن قدرته اليوم على التمتع بما يشاء من مقومات الحياة الرغيدة من مبتكرات الغرب والشرق- عبر إنفاق القروض التي يقترضها وطنه في منتجات استهلاكية- هو أيضًا ظلم جلي سوف يتحمل توابعه الأبناء والأحفاد. ناهيك عن أثر هذه القروض على استقلال إرادة وطنه، وخطرها على سيادته.

كما يقتضي ألا يُهلك كل ما ورثه عن ذويه من أموال- إذا كان يمتلك القدرة على الكسب والعطاء- ثم يترك ورثته فقراء يتكففون الناس؛ لأن ذلك أيضًا أمر يغاير الفطرة الإنسانية العادلة والعقلانية الإنسانية السوية، ويجعل فاعلية عقلانيته لا تختلف عن فاعلية عقلانية الحيوان القاصرة التي لا تنظر إلى آثار سلوكها خارج ما يحقق مصالحها الآنية.. قيد أنملة.

كما يقتضي- أيضًا- ألا يعتمد في توفير مقومات حياته المادية على إحسان الآخرين (أفراد، جماعات، مؤسسات.. الخ) مع قدرته على العمل والإنتاج؛ على نحو يغنيه عن تفضل الآخرين عليه وإحسانهم إليه.. ذلك لأنه عندما يستحل اكتساب مقومات حياته تلك من كد غيره وعرقهم، فإنه يقترف سلوكًا لا يغاير كثيرًا سلوك ذلكم الذي يسرق عامدًا أموالهم التي شقوا في جمعها.

بل إن التزامه بمبادئ العدالة يجب أن يمتد- عندما تتحقق له الاستطاعة- إلى حث الآخرين (أفراد، جماعات، مؤسسات، مجتمع بأسره) على التمسك بتلكم المبادئ في تعاملهم مع غيرهم، ونهيهم عن خرقها؛ حتى لو لم يكن هو طرفًا مباشرًا في هذا التعامل، ولن يصيبه من عدم عدالة هؤلاء ضرر، ولن يناله من تمسكهم بها نفع؛ لأن توقفه أو تقصيره هنا، هو في جوهره صورة جلية من صور عدم العدالة التي لا تليق بإنسانيته.. ناهيك أن خرق العدالة من قبل أي طرف، وسكوته على ذلكم الخرق، سيُعرض لبنات المجتمع، أو جماعاته، أو مؤسساته، أو المجتمع بأسره- ولو بعد حين- لضرر قد يؤدي، إذا ما تراكم أثره، إلى مخاطر جمة.

بل إن ذلك الالتزام يمتد- إذا ما امتلك القدرة- إلى وجوب تقديمه النصرة لمن يقع عليه من غيره أي ظلم؛ لأنه إن حبس عنه قدرته تلك، حاسبه الله بمقدار الظلم الذي كان يستطيع

رفعه؛ فتركه، ولم يرفعه. لكونه بذلك يصبح شريكًا في وقوع ذلكم الظلم؛ فالظلم يكون بالترك كما يكون بالفعل.[5]

وهكذا؛ فالتزام زيد بممارسة العدالة في كل تلكم الصور - التي عرضناها سلفًا على سبيل المثال لا الحصر- تعني التزامه في فعله وقوله ومشاعره بما تمليه عليه فطرته الإنسانية السوية. وهو ما يؤهله لأن يصبح لبنة سليمة في بناء مجتمع إنساني قادر على أن يوفر لنفسه مقومات البقاء.

ثانيًا:

السمات التي تمنح سلوك الفرد كعضو في مؤسسة أو جماعة صفة الإنسانية.

لا ريب أن إنسانية زيد لن تكتمل إلا إذا سادت مبادئ العدالة أيضًا سلوكه في الشق الآخر من حياته، والذي لا يتعامل فيه مع الوجود من حوله باعتباره كيانًا مستقلًا.. وإنما باعتباره عضوًا في مؤسسة أو جماعة ما.. فزيد هنا- ومهما كان موقعه في

---

5 - استفاد المؤلف في هذا المعنى من منشور لمستخدم للفيس بوك اسمه محمود خضر أبو حازم

https://www.facebook.com/mhmwdmhmd.khdr?fref=nf&pnref=story.unseen-section وكان نص المنشور (من ملك قدرة لنصرة مظلوم فحبسها عنه، حاسبه الله بمقدار الظلم الذي يقدر على رفعه وتركه)

الجماعة أو المؤسسة التي ينتمي إليها- ليس إلا لبنة تضطلع بدور مرسوم سلفًا في تحقيق الغاية التي من أجلها هذه المؤسسة قد وجدت، أو الغاية التي تصبو إليها تلك الجماعة، ولن يتسنى لإنسانيته أن تكتمل إلا إذا تحلى سلوكه داخل الكيان الذي ينتمي إليه بمبادئ العدالة سالفة الذكر.

وهو الأمر الذي يفرض عليه أن يتعامل مع باقي أعضاء المؤسسة أو الجماعة التي ينتمي إليها بمعايير العدالة (في الفعل أو القول أو الشعور). فلا يحابي أحدًا على حساب أحد، ولا يمنح أحدًا عطاءً دونما وجه حق، أو يمنع عن أحد عطاءً مستحقًا.. حتى ولو كانت كلمة ثناء بسيطة.

كما يفرض عليه أن يتعامل مع المؤسسة أو الجماعة التي ينتمي إليها تعاملًا عادلًا؛ وهو ما يتجلى في تساوي الجهد الذي يبذله مع المقابل الذي يحصل عليه منها؛ فلا يستحل أن يحصل على دينار واحد لا يستحقه من أموال هذه المؤسسة.. بغير وجه حق.

وأن يطور باستمرار قدراته المعرفية والمهارية التي تمكنه من الاضطلاع بالمهام التي ارتضى أن يُكلف بها داخل المؤسسة التي ينتمي إليها على النحو الأمثل؛ ذلك لأن تدني معارفه ومهاراته عن المستوى الذي يؤهله لإتقان عمله، بما يُمكّن مؤسسته من الاستمرار في المنافسة المحمومة مع المؤسسات الخارجية المناظرة، يعني أنه قد يُعرض قدرة هذه المؤسسة التنافسية إلى التآكل تدريجيًّا، وإذا ما تآكلت هذه القدرة تدريجيًّا، فإن ذلك سيعرضها للفشل وربما للإفلاس ثم الزوال.

ولا مراء أن ذلك ظلم جلي ليس للمؤسسة وحدها، وإنما للمجتمع بأسره الذي تتراجع بتراجع قدرات مؤسساته الاقتصادية فرصة في تأمين مقومات الوجود الرئيسة لأبنائه.. وإذا ما تراكم ذلكم الخلل فسيضطر هذا المجتمع أن يعتمد في توفير تلكم الحاجات الرئيسة لأبنائه على القروض الخارجية.. والدخول في حلقة جهنمية من القروض المتراكمة التي تؤدي به – حتمًا- لأن يصبح فريسة في براثن الدول الدائنة مما يؤول به، كبناء مجتمعي صاحب سيادة واستقلال إلى، التفكك والزوال.

كما يفرض عليه أن يحث الأفراد (اللبنات الأخرى في المؤسسة التي ينتمي إليها) أو وحدات المؤسسة، أو هذه المؤسسة ككل (ممثلة في قيادتها) على تحري العدالة في سلوكهم مع بعضهم البعض، ومع المؤسسة ككل، وفي سلوكهم مع عملائها، ومع منافسيها، بل ومع أعدائها.. ما وجد إلى ذلكم سبيلا. فغياب سيادة العدالة لسلوك أعضاء مؤسسة أو جماعة ما يُؤذن بتفككها وانهيارها.

وإذا ما احتل زيد موقعًا ذا صلة بتعامل المؤسسة مع الأفراد، أو المؤسسات، أو المجتمعات التي تستفيد مما تقدمه هذه المؤسسة من خدمات، أو منتجات؛ فينبغي أن يبني ذلكم التعامل مع هؤلاء على أساس العدالة، لا على أساس إعلاء مصلحة المؤسسة على حساب مصالحهم، أو تنفيذًا لأوامر ورغبات أصحاب القرار فيها؛ لأن سعي المؤسسة لتحقيق مصالحها على حساب مصالح الآخرين، سيخلق- على المدى البعيد- مجتمعًا مختلًا ينقسم إلى قلة تحوز المال والسلطان، من أصحاب وقادة

هذه المؤسسات، وكثرة لا تجد إلا الكفاف... ومجتمع هذا حاله لا يمكن أن يحتل مكانة تُذكر بين المجتمعات التي قادتها العدالة السائدة بين أفرادها ومؤسساتها إلى درجات هائلة في مضمار التقدم... **هذا إن لم يقع –على المدى البعيد في براثن التفكك ثم الفناء!!**

كذلكم يتطلب إعلاء زيد قيم العدالة عندما يسعى لتحقيق مصالح الجماعة التي ينتمي إليها، فلا يبغي على مصالح غيرها من الأفراد، أو الجماعات، أو المؤسسات؛ كشرط حتمي لضمان استمرارية تماسك هذا المجتمع وتلاحمه، وعدم تفسخه وتحلله على المدى البعيد.

وهكذا؛ فعلى زيد أن يدرك أن ممارسة العدالة التي تمنحه صفة الإنسانية عن جدارة، لا تقف عند تعامله مع الآخرين كذات مستقلة، وإنما تمتد إلى التزامه -عندما يكون عضوًا في مؤسسة أو جماعة- بمعايير العدالة في تعامله مع الآخرين ... فالعدالة ينبغي أن تكون كُلاً لا يتجزأ.

وعليه أن يدرك أن حتمية الالتزام بتلكم المعايير لا تقف عند كونها تجعله يصبح جديرًا بأن يوصف بكونه إنسانًا يحمل فطرة سوية، وإنما تمتد إلى كونها تعد الشرط الرئيس لتماسك المجتمع الذي ينتمي إليه، ولتأمين مقومات بقائه، واحتلاله لمكانة تليق به بين مجتمعات الدنيا.

وعليه أن يدرك -أيضا- أن الإخلال في الالتزام بهذه المعايير يعني اختلال بنية مجتمعه هذا، واختلال قدرته- من ثم- على تأمين مقومات الوجود الرئيسة لأفراده.

ومثل هذا المجتمع لن يكتب له الصمود والبقاء طويلًا ..لأن المجتمعات التي تسود روح العدالة سلوك أبنائها هي فقط من يُكتب لها البقاء

القسم الثاني

الخروج عن حدود العدالة كسمة للفطرة الحيوانية

للإجابة عن التساؤل الذي طرحنا سلفًا حول مدى إمكانية أن نصف بالإنسانية من لا يلزمه عقله باتباع ما تمليه عليه فطرته من عدالة في تعامله مع الآخرين، نستعرض ملامح وآثار خروج سلوك الإنسان عن العدالة عندما يكون كيانًا مستقلًا، أولا. ثم ملامح وآثار خروجه عنها عندما يكون عضوًا في مؤسسة أو جماعة، ثانيًا. والوصف الذي يليق به في الحالتين.

أولاً:

خروج الفرد ككيان مستقل عن العدالة

في تعامله مع الآخرين

لا مراء أن زيدًا – بطل قصتنا السالفة -لا يحق له أن يعيب على ذلكم القط الذي خطف دجاجته؛ لأن هذا الفعل لا يناقض فطرته الحيوانية، ويتفق مع حدود مدركاته العقلية، بينما محال إذا ما اقترف الفعل نفسه إنسان هو عمرو، ألا يعيب عليه زيد -بل وكل إنسان سوي- ذلكم الفعل المناقض لفطرته، ولمدركاته العقلية، والموائم لفطرة وعقلية كائنات أقل منه في درجتها، وهي الحيوانات التي تقف عند تحقيق ما ينفعها، ودفع ما يضرها،

بغض النظر عن أثر ذلك على الغير الآن أو بعد حين[6] ،أو أثر ذلك عليها هي نفسها بعد حين.

وهو ما يعني أننا نستطيع أن نحكم باطمئنان أن فطرة من يقترف ذلكم الفعل غير العادل منا نحن البشر، وهو- في مثالنا السالف- عمرو لا تغاير في فاعليتها هنا فطرة الحيوان، وهو هنا "القط" في شيء. كما أن حدود فاعلية عقلانية عمرو في ضبط مسالكه، لا تغاير هنا حدود فاعلية عقلانية ذلكم الحيوان (القط) في شيء.

وبالطبع؛ ينطبق هذا الحكم ذاته على عمرو أيضًا - عندما يسمح له عقله أن يتعامل مع الجماعات أو المؤسسات أو المجتمع الذي ينتمي إليه، أو مع جماعات أو مؤسسات المجتمعات الأخرى، على نحو يسعى فيه لأن يُحرز لنفسه- عبر قول أو فعل ما- نفعًا ليس له فيه حق، أو يدفع عنه ضررًا مستحقًا.

كذلك عندما يُحرض الآخرين على ارتكاب فعل يتخطى حدود العدالة ضد طرف ما، أو عندما يُيسر لطرف معين اقتراف هذا الفعل، أو يغض الطرف عنه، طمعًا أن يعود عليه نفع ما في النهاية، أو سعيًا لدفع ضرر محتمل يمكن أن يحيق به.

كذلك عندما يستخدم ما وُهبه الله – تبارك وتعالى- من قدرات عقلية لإقناع الآخرين بعدم فعل الخير لطرف ما، طمعًا أن

---

[6] - بالطبع لا نقصد هنا فطرة الحيوانات الأليفة التي يتم تربيتها في المنازل، ويتم تدريبها على سلوكيات محسوبة لا تتجاوزها، وإنما نقصد فطرة حيوانات الغاب، وما شابهها.

يعود عليه من ذلكم الخير الذي نجح في منعه عمن يستحقه نصيب.

كما ينطبق عليه عند امتناعه عن، أو تقصيره في حث الآخرين على الالتزام بالعدالة في مسالكهم، مع قدرته على ذلك، وعند تقصيره في إرشادهم إلى السلوك العادل مع غيرهم.

ثانيًا:
خروج الفرد عن العدالة
كعضو في مؤسسة أو جماعة

يتجلى خروج عمرو أيضًا عن نطاق فطرته الإنسانية العادلة، ودخوله في نطاق فطرة لا تبالي إلا بما يحقق مصالحها.. ألا وهي الفطرة الحيوانية، حينما يكون عضوًا في مؤسسة أو جماعة ما، في صور عدة... منها –على سبيل المثال-لا الحصر:

- عندما يسمح له عقله، أن يسعى إلى تحقيق المزيد من المكاسب من المؤسسة أو الجماعة التي ينتمي إليها، دون تأدية ما عليه من واجبات تعادل هذه المكاسب، وهو ما يعنى تعرض هذه المؤسسة، إذا ما ساد هذا السلوك بين من ينتمون إليها، إلى الانهيار الحتمي في النهاية.

- كذلك عندما لا يساوي عمرو – إذا كان من أصحاب القرار في هذه المؤسسة أو الجماعة- بين المنتمين إلى هذه المؤسسة في الواجبات أو الحقوق دونما وجه حق.

- كذلك عندما يحتل – بطريقة أو بأخرى- موقعًا يتطلب امتلاك معارف أو قدرات تفوق معارفه وقدراته، وهو ما يعني أنه لن يستطيع أن يضطلع بعمله بالكفاءة المطلوبة، مما يؤدي إلى ضعف قدرة القطاع الذي يقوده في هذه المؤسسة على إنجاز الدور المنوط به، على نحو قد يضعف أداء المؤسسة برمتها، ويضعف من ثم قدرتها على المنافسة، ربما بصورة تهدد قدرتها على البقاء.

- كما يتجلى عندما يقبل أن يحتل موقعًا يتطلب إنجاز مهامه على الوجه الأكمل معارف ومهارات متطورة يتراخى هو في اكتسابها إذا ما كان هناك إمكانية لاكتسابها، أو تراخى - سلفًا - في اكتسابها عندما كان على مقاعد الدراسة، مما يؤثر على كفاءته في الاضطلاع بهذه المهام، وهو ما يخلف نتائج سلبية مباشرة، أو غير مباشرة، عاجلة أو آجلة على المؤسسة، أو على عملائها دونما ذنب اقترفوه.

- كذلك يتجلى عندما يُسهم في تجاوز مؤسسته أو جماعته لحدود العدالة في تعاملها مع غيرها(الأفراد أو المؤسسات أو الجماعات أو المجتمعات)،على النحو الذي يحقق مصالحها على حساب مصالحهم، مما يلحق ضررًا حالًا أو لاحقًا بهم، دونما ذنب اقترفوه.

- كما يتجلى عندما يُحرض الأفراد الذين يشكلون لبنات هذه المؤسسة، أو بعض وحداتها، أو المؤسسة برمتها – ممثلة في قيادتها- على ارتكاب فعل يتخطى حدود العدالة، ضد طرف ما داخل المؤسسة أو خارجها، أو عندما يُسهم في تيسير ارتكاب هذا الفعل، أو غض الطرف عنه. طمعًا أن يعود عليه نفع ما في النهاية، أو سعيًا لدفع ضرر محتمل يمكن أن يصيبه.(7)

- كما يتجلى أيضًا عندما يحث الأفراد الذين يشكلون لبنات هذه المؤسسة، أو بعض وحداتها، أو قيادة المؤسسة برمتها، على عدم مد يد العون لطرف أو أطراف ما، تحتاج هذا العون... أملًا أن يعود عليه من منع الخير عن هذا الطرف نفع ما.

- كما يتجلى في تقصيره في حث الأفراد(اللبنات الأخرى في المؤسسة التي ينتمي إليها) أو وحدات المؤسسة، أو المؤسسة ككل(ممثلة في قيادتها) على تحري العدالة في تعاملاتهم مع بعضهم البعض، وفي تعاملات المؤسسة مع عملائها، ومع المؤسسات أو الجماعات الأخرى، بل ومع منافسيها، بل ومع أعدائها، مما يُعرض لبنات المؤسسة، أو وحداتها، وربما المؤسسة برمتها، بل وربما عملاء المؤسسة أو المؤسسات الأخرى، أو المجتمع بأسره لظلم جلي، على قدر ما تم خرقه هنا من قواعد العدالة. حتى لو لم تتبدد نتائج ذلكم في الأمد القريب.

---

7 - بل إن ميل الإنسان للظالمين يجعله عرضة لأن يكون من الذين تمسهم النار ﴿وَلاَ تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ (هود:113)

تلكم أمثلة سريعة لتجلي آثار غلبة الفطرة الحيوانية على سلوك عمرو، سواء بوصفه كائنًا مستقلًا، أو بوصفه عضوًا في جماعة أو مؤسسة ما من جماعات ومؤسسات المجتمع الذي ينتمي إليه.

وفي كل تلكم الحالات التي يتخطى فيها عمرو حدود العدالة مع الآخرين من حوله، ساعيًا لتحقيق مصالحه الذاتية على حساب مصالحهم، يصبح الوصف الذي ينطبق عليه هو أن فطرته لا تغاير في فاعليتها هنا فطرة الحيوانات في شيء. كما أن حدود فاعلية عقله لا تغاير هنا حدود فاعلية عقل الحيوان في شيء. وهنا يحق لنا أن نتساءل: إذا كانت فاعلية عقل وفطرة صاحبنا عمرو لا تغاير حدود فاعلية عقل وفطرة الحيوان...فهل يتبقى له - حينئذ- من إنسانيته شيء؟!!

وإذا ما جادل أحد أن وصفنا سلوك عمرو بأنه سلوك ينتمي إلى الفطرة الحيوانية يبدو وصفًا يتسم بالقسوة.. وأنه وصف يحمل إهانة لذلكم المخلوق الذي كرمه ربه.. فإنا نقول له: إن القرآن الكريم قد وصف أُناسًا استغرقتهم الفطرة الحيوانية التي تسعى لحيازة ما يلبي رغباتها وشهواتها حتى أعمت عقولهم وأبصارهم، وأصمت آذانهم عن الإيمان بربهم الذي يأمرهم أن يكونوا عادلين رحماء، فأبعدتهم عن فطرتهم الإنسانية العاقلة العادلة التي تهديهم إلى الإيمان بربهم.. وصفهم مرة بأنهم كالأنعام ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ

بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: 179)[8]

كما وصفهم مرة أخرى بأنهم شر من يدب على الأرض﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال:22) وفي موضع آخر من نفس السورة آية 55﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

وهو ما يعني أن هؤلاء الناس لم ينتفعوا بما وهبهم الله من نعم كرمهم وفضلهم بها- يأتي العقل في مقدمتها- على كثير من خلقه تفضيلًا ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:70) ولم يحسنوا استغلال ما وهبهم الله تعالى من سمات فطرية متفردة منحها إياهم جعلت القرآن يصفهم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين:4) وإنما هبطوا إلى سلوك يليق

---

8 - وتشبيههم بالأنعام في عدم الانتفاع بما ينتفع به العقلاء فكأن قلوبهم وأعينهم وآذانهم، قلوب الأنعام وأعينها وآذانها، في أنها لا تقيس الأشياء على أمثالها ولا تنتفع ببعض الدلائل العقلية، فلا تعرف كثيرًا مما يفضي بها إلى سوء العاقبة.. ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلاتها الكائنة فيهم أنهم عطلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له: وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي ويدفع به الضر الأبدي، لأن آلات الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضار، فلما لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار، نفي عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة، لأن الفعل في حيز النفي يعم، مثل النكرة، فهذا عام أريد به الخصوص للمبالغة لعدم الاعتداد بما يعلمون من غير هذا، فالنفي استعارة بتشبيه بعض الموجود بالمعدوم كله" الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون ج 9 ص ص 184-183 دون تاريخ

بفطرة كائنات أدنى- على نحو جعلهم يستحقون أن يردوا إلى أسفل سافلين﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين:5) (9)

9 - وفي تفسير قوله تعالى﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾يقول صاحب الظلال"إن تخصيص الإنسان هنا- وفي مواضع قرآنية أخرى- بحسن التركيب، وحسن التقويم، وحسن التعديل.. فيه فضل عناية بهذا المخلوق. وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق- على ما به من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد - لتشير إلى أن له شأنًا عند الله، ووزنًا في نظام هذا الوجود. وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجسماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب.والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية. فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها. إذ إنه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين. وفي هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنساني. فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين. كما تشهد بذلك قصة المعراج.. حيث وقف جبريل - عليه السلام - عند مقام، وارتفع محمد بن عبد الله - الإنسان- إلى المقام الأسنى .بينما هذا الإنسان مهيأ - حين ينتكس - لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط :ثم رددناه أسفل سافلين ..حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم، لاستقامتها على فطرتها، وإلهامها تسبيح ربها، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى. بينما هو المخلوق في أحسن تقويم، يجحد ربه، ويرتكس مع هواه، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ..فطرة واستعدادًا ..ثم رددناه أسفل سافلين ..حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذي هداه الله إليه، وبينه له، وتركه ليختار أحد النجدين .إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال. فلهم أجر غير ممنون دائم غير مقطوع. فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين، فيظلون ينحدرون بها في المنحدر، حتى تستقر في الدرك الأسفل. هناك في جهنم، حيث تهدر آدميتهم، ويتمحضون للسفول !فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء.. إما استقامة على الفطرة القويمة، وتكميل لها بالإيمان، ورفع لها بالعمل

وثمة سؤال يثار هنا هو.. كيف نفسر تجاوز صاحبنا عمرو حدود العدالة في قوله أو فعله أو شعوره نحو غيره، بصورة تجعل سلوكه من ذلك النوع الذي تسمح باقترافه فطرة أخرى، هي الفطرة الحيوانية؟!

ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل أن ثمة عللا ثلاث تسهم في تفسير ذلك ألا وهي:

العلة الأولى :غلبة نزعة المصلحة الذاتية القاصرة والعاجلة لديه- لهوى أو شهوة أو رغبة ما- على نحو يجعل عقله تحت إلحاحها لا يغاير في شيء – في طبيعة الدور الذي يقوم به هنا- عقل الحيوان الذي يفكر في تحقيق الهدف اللحظي لصاحبه، دون أدنى التفات للآثار السلبية التي قد يخلفها هذا الفعل على الآخرين حينها، أو على نفسه في وقت لاحق.

الصالح.. فهي واصلة في النهاية إلى كمالها المقدر في حياة النعيم.. وإما انحراف عن الفطرة القويمة، واندفاع مع النكسة، وانقطاع عن النفخة الإلهية.. فهي واصلة في النهاية إلى دركها المقرر في حياة الجحيم .ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان في حياة الإنسان.. إنه المرتقى الذي تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كمالها. إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها. إنه النور الذي يكشف لها مواقع خطاها في المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين .وحين ينقطع هذا الحبل، وحين ينطفئ هذا النور، فالنتيجة الحتمية هي الارتكاس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين، والانتهاء إلى إهدار الآدمية كلية، حين يتمحض الطين في الكائن البشري، فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء !" تفسير في ظلال القرآن، دار الشروق ج 6،ط 32 2003 ص ص: 3932، 3934.

العلة الثانية: وتتجلى في اختلال أو قصور معايير العدالة التي يهتدي بها عقل عمرو - عند امتلاكه فطرة سوية- على نحو لا يُمكّنه من ممارسة هذه العدالة مع غيره كما ينبغي أن تُمارس، وهو ما يمكن أن نلمس له مثالًا واضحًا في رؤية كل واحد منا أن ثمة حق له أن يمتلك مقومات الحياة الرغيدة في المسكن والملبس والمأكل والمشرب والمركب.. وخلافه، دون أن يرى وجوب اجتهاده هو أيضًا في أن يقدم للوجود مقابلًا عادلًا يوازي جهد البشر الآخرين الذين يكدحون لتوفير هذه المقومات له.

العلة الثالثة: تضخيم المرء منا لذاته وبكل ما يتعلق بها، واستغراقه في مشاعره هو، ورغباته هو، ومصالحه هو؛ على نحو يجعل إدراكه لمشاعر الآخرين ورغباتهم، وكل ما يتعلق بهم إدراكًا باهتًا لا يكاد يكون له من شعوره نصيب.. وهو الأمر الذي يجعل أي ضرر يصيبه من قِبلهم يمثل لديه أمرًا جللًا.. بينما إذا ما أصابهم هو بذات الضرر، فهو أمر لا يكاد يُدرك له أثرًا، أو يلقي له بالًا.. ناهيك عن تلكم الحجج التي يُقنع بها نفسه، ويسوقها لإقناع الآخرين بأن ما فعله ويفعله معهم؛ هو دائمًا أمر لا يقدح في عدالته قيد أنملة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى نماذج صارخة لخروج البعض عن الفطرة السوية العادلة؛ على نحو يجعل أصحابها ينتمون إلى زمرة المفسدين في الأرض فيقال لهم: انتهوا عن فسادكم.. فلا يكون ردهم بالاكتفاء بنفي تهمة الفساد عن أنفسهم بأنهم ليسوا مفسدين. وإنما يردون-عن قناعة راسخة- لديهم بقولهم: إنما نحن مصلحون.. فيُثبت لهم القرآن الكريم صفة الفساد، إلا إنه يقرر

في الآن نفسه أنهم لا يشعرون أنهم بالفعل مفسدون ﴿ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ
هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (12﴾ (البقرة).

القسم الثالث

الخروج عن الفطرة الحيوانية
والدخول في
الفطرة الشيطانية

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا: بماذا يمكن أن نصف سلوك شخص متطرف في عدوانيته وتجاوزه للعدالة على نحو لا يهدف منه لأن يجلب لنفسه نفعًا أو يدفع عنها ضررًا- مثلما هو الأمر بالنسبة للفطرة الحيوانية- وإنما يهدف إلى إيقاع ضرر محض بطرف آخر، أو حرمانه من نفع مستحق، دون أي مردود ملموس يعود عليه؟!

وللإجابة على هذا التساؤل نعود هنا للصراع بين صاحبينا زيد وعمرو؛ غير أن محور الصراع بينهما- هذه المرة - ليست "دجاجة" زيد، وإنما سيارته ..تلك السيارة التي قرر عمرو أن يستولي عليها بمساعدة آخرين، وبالقوة المسلحة، وأمام ناظري زيد .. لا مراء أن عمرو ينقل هنا نفعًا من زيد إلى نفسه بغير وجه حق، نعم هذا الأمر جريمة أكبر بكثير من جريمة خطف الدجاجة، إلا أن ثمة تشابها بين الجريمتين، ألا وهو أنهما تقعان في نطاق ما تسمح به الفطرة الحيوانية التي تسعى لتحقيق النفع، أو دفع الضرر عن نفسها على حساب غيرها، طالما امتلكت لتحقيق ذلك سبيلًا.

لكن هب أن عمرو بدلا من أن يسرق سيارة زيد بالقوة- قام بمساعدة آخرين بتكبيله وإشعال النار فيها أمام ناظريه.. هل يمكن أن نصنف هنا حرق عمرو لسيارة زيد بأنه سلوك ينتمي إلى الفطرة الحيوانية؟!

الإجابة هي: بالطبع لا... فمثل هذا السلوك لا يمكن تصنيفه على أنه سلوك حيواني؛ لأن الفطرة الحيوانية لم تُجبل عليه مطلقًا، بل إن مثل هذا السلوك لا يخطر بعقل الحيوان أساسًا.

إذن؛ ما طبيعة هذه الفطرة التي تسمح لعمرو أن يوقع بزيد ضررًا جللًا، دون أن يعود عليه أي نفع، اللهم إلا الشعور بالشماتة والتشفي في زيد؟!

الواقع أن طبيعة هذه الفطرة لا بد أن تنتمي إلى دائرة أدنى من تلك الفطرة الحيوانية، ألا وهى دائرة الفطرة الشيطانية.. فالشيطان فقط هو الذي يسعى إلى إلحاق الأذى بالآخرين بدافع الكبرياء الذي يجعل مشاعر الحقد والحسد والكراهية تتملكه تجاه غيره، دون أي مردود يذكر عليه، سوى التشفي والشماتة فيمن وقع عليه ذلكم الضرر.

قد يعترض مُعترض فيقول: هل يحق لنا أن نصف مسالك الإنسان الذي كرمه الله – تعالى- بأنها مسالك شيطانية؟! نقول له نعم.. فالقرآن الكريم لم يكتف بوصف مسالك صنف من الناس بأنها شيطانية؛ وإنما وصف أصحاب تلكم المسالك بوضوح شديد بأنهم شياطين، لأنهم انغمسوا في هذه المسالك على نحو جعلهم يعادون أعدل البشر، وأرحمهم، وأشرفهم.. ألا وهم الأنبياء ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(البقرة:14)،وشياطينهم هنا رؤساؤهم[10]. وفي موضع آخر ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: 112)

[10] - انظر جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين (القاهرة:مكتبة الصفا،2004) ص 3

ويمكن تلمس بعض ملامح ممارسة الطبيعة الشيطانية وتجلياتها في سلوك الفرد باعتباره كيانًا مستقلًا، أو سلوكه باعتباره عضوًا في جماعة أو مؤسسة" وذلك على النحو الآتي:

أولاً:

خروج الفرد ككيان مستقل عن الفطرة الحيوانية ودخوله في الشيطانية

الواقع أن السلوك الشيطاني لبطل قصتنا السالفة عمرو- والذي يقف خلفه رصيد هائل من الحقد والحسد لغيره- لا يتجلى فقط في التشفي من شخص ما؛ عبر تدمير ممتلكاته أو سمعته أو مكانته أو ما إلى ذلك، وإنما يتجلى أيضًا فيما يمكن أن يقوم به عمرو من إفساد ممتلكات، أو سمعة، أو مكانة فرد، أو مؤسسة أو جماعة ما، أو بخس نجاح معين حققته، رغبة في تدميرها أو تشويهها، أو انتقامًا من أصحابها أو قادتها.

وقد يصل هذا التصرف الشيطاني به لأن يعادي مجتمعًا بأكمله، ويسعى إلى تخريبه أو تشويه عقيدته التي ارتضاها، ولو على يد الأعداء، حنقًا منه - لعلة أو لأخرى في نفسه -على هذا المجتمع برمته.

وقد يأخذ السلوك الشيطاني لعمرو بعدًا ثانيًا مغايرًا لإيقاع الشر مباشرة بالأطراف السالفة، أو منع الخير عنها- بالقول أو الفعل- وذلك عندما تكون لديه القدرة على منع مصاب معين سيقع لأي من تلك الأطراف، دون أن يكلفه منعه إلا كلمة حق، فلا ينطقها ، رغبة في وقوع هذا المصاب بهم.

كذلك عندما يمنع - بفعله أو قوله- عن تلكم الأطراف خيرًا مستحقًا، دون أن يعود عليه من ذلكم المنع شيء، كذلك عندما يُحرض آخرون على منع الخير عنها، أو يحثهم على إيقاع الضرر بها. دون أن يعود عليه من ذلكم شيء إلا التشفي فيها.

ثانيًا:

خروج الفرد كعضو في مؤسسة أو جماعة عن الفطرة الحيوانية ودخوله في الشيطانية

يُمكن القول: إن سلوك عمرو يهبط من مستوى السلوك الذي تسمح به الفطرة الحيوانية التي تسعى إلى تحقيق مصالحها على حساب غيرها، إلى فطرة أدنى هي الفطرة الشيطانية، وذلك عندما يكون همه- على سبيل المثال لا الحصر:

- السعي إلى تخريب المؤسسة التي هو عضو فيها، انتقامًا من صاحب هذه المؤسسة، أو صاحب القرار فيها.. دون وجه حق.

- السعي إلى تخريب علاقات الأفراد في هذه المؤسسة ببعضهم البعض حنقًا على البعض منهم. أو السعي إلى تفكيك الوحدات التي تتكون منها تلك المؤسسة أو إضعافها.

- الزج بها في صفقات أو أعمال يعلم أنها خاسرة سلفًا، أو تخريب علاقتها بعملائها، وبالمؤسسات الأخرى.

- تشويه صورتها عند المجتمع الخارجي، أو عند المؤسسات المماثلة لها، أو بين عملائها.

ولا مراء أن كل هذه السلوكيات - وما شابهها - تخلُف خرابًا في تلك المؤسسة أو الجماعة، دون أن يكون ثمة مردود حقيقي يعود عليه من إدارة عملية التخريب الشيطانية تلك، سوى التشفي في قيادتها، أو أصحاب القرار فيها، أو أطراف ما داخلها.. حسدًا من عند نفسه.

وقد يأخذ السلوك الشيطاني لعمرو– عندما يكون جزءً من بنية مؤسسة أو جماعة ما- بعدًا مغايرًا لإيقاع الشر مباشرة بالبنية التي ينتمي إليها، أو منع الخير عنها، بالقول أو الفعل، وذلك عندما:

- تكون لديه القدرة على منع مصاب معين قد يحيق بالمؤسسة أو الجماعة التي ينتمي إليها – دون أن يكلفه ذلك إلا كلمة - فلا يسعى لمنعه، رغبة في وقوع هذا المصاب بها.

- كذلك عندما يسعى إلى حث الآخرين(أفراد، مؤسسات، جماعات) على حرمانها من خير مستحق لها، كذلك عندما يغري الآخرين(جماعات، مؤسسات، أفراد) بإيقاع الضرر بها.

وهكذا؛ وبناءً على ما سلف يُمكن القول: إننا نقف أمام ثلاثة أصناف من البشر: صنف ينتمي سلوكهم إلى الفطرة الإنسانية السوية، وهم الذين يمارسون العدالة(القسط) وقد يصل بهم الأمر إلى أن يكونوا دعاتها بين الناس. وقد توعد القرآن الكريم من يقتل دعاة العدالة بين الناس بغير حق - مثلهم في ذلك مثل من يقتل الأنبياء بغير حق - بالعذاب الأليم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(آل عمران:21) [11].

وصنف تُعمي مصالحهم عقولهم عن تحري العدالة في سلوكهم.. وهم هنا يهبطون في سلوكهم إلى سلوك فطرة أدنى من الفطرة الإنسانية السوية، ألا وهي الفطرة الحيوانية.

وصنف يهبط سلوكهم دركات بعيدًا عن مستوى الفطرة الحيوانية، ويدخل بهم إلى دائرة الفطرة الشيطانية، التي تسعى إلى إلحاق الضرر بغيرها دون أن يكون هناك أي مردود ملموس عليها.

وبالطبع فإن الشخص الواحد منا قد يقترف تارة سلوكًا عادلًا، وهو حينها يمكن أن يوصف بكونه إنسانًا. وقد يقترف تارة أخرى سلوكًا يتنافى مع العدالة في القول أو الفعل أو الشعور أو الأخذ أو العطاء. وهنا يصعب أن نصف هذا السلوك أنه سلوك نابع من فطرة إنسانية سوية، بل هو سلوك تسمح فقط به الفطرة الحيوانية. وقد يتدنى- في حالة ثالثة- لاقتراف سلوك ينتمي إلى الفطرة الشيطانية، وحينئذ ليس من العدل في شيء أن نصف سلوكه هذا بأنه ينتمي إلى الفطرة الحيوانية.

---

[11] وفي تفسير قوله تعالي﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ يقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره المنار"أي الحكماء الذين يرشدون الناس إلى العدالة العامة في كل شيء ، ويجعلونها روح الفضائل وقوامها ، ومرتبتهم في الهداية والإرشاد تلي مرتبة الأنبياء وأثرهم في ذلك يلي أثرهم" تفسير المنار ، الجزء الثالث (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،د ت) ص 219

كما أن أي إنسان منا لن يكون جديرًا أن يوصف بأنه إنسان بحق، إلا إذا كانت العدالة هي ضابط سلوكه في كل وقت وحين. أما إذا كان ديدنه دائمًا هو تحقيق مصالحة على حساب مصالح الآخرين (أفراد، مؤسسات، جماعات...إلخ) فإنه يستحق -حينئذ- وصفه بكونه من الدواب أو الأنعام. وإذا كان طبعه دائما هو إيقاع الأذى بالآخرين، حسدًا من عند نفسه، فإنه عندها يستحق وصفه بكونه شيطانًا عن جدارة.

وإذا كانت سيادة السلوك الحيواني الذي يفتقر إلى العدالة في مجتمع ما، وآثارها السلبية على أفراده ومؤسساته ومكوناته عامة تؤذن بهلاك هذا المجتمع، وإن كانت على مدى ليس قصيرًا.. فإن سيادة الآثار التدميرية للسلوك الشيطاني على أفراده ومؤسساته ومكوناته تؤذن بهلاكه على المدى القصير.

ولا مراء أن التصدي لممارسات مثل هذه النفوس التي تغلب على طباعها طباع الفطرة الحيوانية أو الشيطانية، ونهيها عن غيها وطغيانها، أمر حتمي على كل من يهمهم أمر مجتمعاتنا، بداية من أولي الأمر، ومرورًا بكل القائمين على التربية، والتعليم، والدعوة والإعلام، وانتهاءً بكل شخص يملك قدرة على التأثير فيمن حوله تأثيرًا إيجابيًّا ..حتى نحافظ جميعًا على بقاء مجتمعاتنا.. ومن ثم على بقائنا ككائنات حية على ظهر هذا الكوكب.

القسم الرابع

سمات الإنسان المسلم بحق

إذا كان هم الأقسام الثلاثة التي ضمتها الصفحات السالفة قد انصب على الإجابة على التساؤلات الثلاثة الأولى من التساؤلات الستة التي طرحناها في مقدمة الكتاب، فإن هم هذا القسم ينصب حول تقديم إجابة على التساؤلات الثلاثة الباقية منها. ويمكن صياغة هذه التساؤلات هنا بصورة أخرى؛ ألا وهي:

ماذا لو ارتقى كل إنسان يعتنق دين الإسلام إلى مستوى العدالة في قوله، وفعله، وشعوره، أو أخذه أو عطائه، مع كل من يتعامل معه، هل يعني هذا أنه أصبح مسلمًا حقا؟!

إذا كانت الإجابة نعم: سوف يصفعنا تساؤل هو: وما الذي سوف يميزه – حينئذ- عن شخص ينتمي لدين آخر، ويطبق معايير العدالة بحذافيرها عند التعامل مع الآخرين؟! أو بمعنى آخر، ما الذي يجعل وصفنا لهذا الإنسان- بأنه إنسان مسلم- وصفًا يحمل دلالة وقيمة مضافة وفارقة، عن وصفنا لشخص آخر بأنه بوذي، أو سيخي، أو غيرها من الأديان الوضعية، يتعامل مع غيره بذات الدرجة من العدالة؟!

هل يمكن أن نُجيب: نعم إن هذا الفارق هو الشعائر التعبدية من صلاة، وصوم، وزكاة، وحج وخلافه؟!.. لو كانت تلك هي إجابتنا.. سوف يُرد علينا بالقول: إن كل الأديان أيضًا بها شعائر تعبدية، وإذا كان تمايز الإسلام عن غيره من الأديان لا يتخطى حدود أداء تلكم الشعائر، فلا مراء أن أي دين له شعائر أقل كلفة وإرهاقًا، وربما أكثر متعة لمعتنقيه، هو دين جدير بأن يصبح أكثر إغراءً للناس باتباعه، لاسيما إذا لم يكن ثمة تكاليف أخرى تترتب على اعتناقهم إياه.. إذًا: ما هي تلكم الإجابة؟!

حتى نجيب على ذلكم التساؤل نضرب في هذا الصدد مثالًا.. هب أن ثمة شخصين: أحدهما مسلم هو زيد بطل مثلنا السابق، والثاني بوذي اسمه" يونج" يتشاركان مصنعًا صغيرًا مع شخص ثالث لا دين له اسمه "مارك"... يتعامل زيد مع شريكيه "يونج" و"مارك" بصورة تتنافي مع العدالة التي تفرضها عليه فطرته الإنسانية السوية: فهو يسعى للحصول على منافع من شراكته تلك، أكثر مما يتحمل من أعباء، ولا يتفانى مثل شريكيه في العمل، ناهيك عن عدم التزامه بمواعيد عمله، وعدم حرصه على الارتقاء به، وغير ذلك من سلوكيات تناقض حرصه -عند اقتسام الأرباح نهاية كل شهر- على أخذ نصيبه كاملًا غير منقوص.

على الجانب الآخر نجد "يونج" يتعامل مع شريكيه زيد و"مارك" بالعدالة التي تمليها عليه فطرته الإنسانية السوية: فهو ملتزم بمواعيد العمل، متفانٍ مثله مثل "مارك" في العمل، حريص على الارتقاء به.

في موعد الصلاة يستأذن زيد شريكيه "مارك" و "يونج" للذهاب إلى المسجد المجاور، كما يستأذن "يونج" في موعد صلاته شريكيه زيد و"مارك" للذهاب إلى المعبد القريب، هذا بالإضافة إلى قيام كل منهما بشعائر دينية أخرى يرى أنها تجعل معبوده راضيًا عنه. لكن شريكهم "مارك" لا يعرف عنها شيئًا.. بل لا يبالي أن يعرف عنها شيئًا.

هب أن "مارك"- الذي لا دين له - أراد أن يفاضل بين الإسلام والبوذية. وهو ليس لديه أية معرفة أو خبرة سابقة

بالدينين، اللهم إلا ذهاب كل من شريكيه للتقرب للإله الذي يعبده، ولم يخطر مطلقًا بباله أن يسأل أي منهما عن حقيقة دينه.. هل يمكن لـ"مارك" حينها أن يقرر أن شريكه زيد ينتمي إلى دين أفضل من الدين الذي ينتمي إليه شريكه "يونج"؟

الإجابة: محال! فما طبيعة ذلكم الدين الذي يسمح الخالق المعبود فيه أن تتنافى علاقة معبوديه بغيرهم من الناس مع العدالة التي فطر جميع الناس عليها، ثم يقبل تضرعهم إليه وزلفاهم، ويتولون وهو راضٍ عنهم؟! والمنطق يقول: إن حدث ورغب "مارك" في الانتماء إلى دين أحد شريكيه سوف يختار الدين الذي يعتنقه "يونج" صاحب السلوك النابع من فطرة إنسانية سوية؛ ألا وهو البوذية.

ثم هب أن كلًا من زيد و"يونج" يتعاملان مع بعضهما البعض ومع شريكهما "مارك" بما تمليه عليهما دائرة الفطرة الإنسانية السوية؛ من العدالة في القول والفعل والشعور، وفي الأخذ والعطاء.. وفي موعد الصلاة يذهب زيد إلى مسجده ويدلف "يونج" إلى معبده .. وهب أن "مارك" أراد أن يفاضل بين ديني صاحبيه، رغبة منه في اعتناق الدين الأفضل من بينهما، دون أن يطلب من أي منهما أن يحدثه عن حقيقة الإله الذي يعبده، أو عن طبيعة الشعائر التعبدية التي يتقرب إليه بها... بالطبع ليس ثمة ما يمكن أن يلحظه "مارك" في سلوك زيد كشيء مميز عن سلوك "يونج" على نحو يدفعه لحسم اختياره، واعتناق الإسلام دينًا دون البوذية، وهو مطمئن القلب، قرير العين هانيها.

وهنا يثور تساؤل هو: ما الذي يجعل-إذن - وصف زيد لنفسه بأنه مسلم يحمل شيئًا ذا دلالة بالنسبة لـ"مارك"[12]، على نحو يجعله يحسم اختياره باعتناق الإسلام دون البوذية، أو غيرها من الأديان عن قناعة تامة لديه؟[13] أو بصيغة أخرى: ما السمات الرئيسة التي يجب أن تتوافر في سلوك زيد حتى يكون جديرًا أن يوصف بأنه سلوك إنسان مسلم بحق؟!

الإجابة البدهية هي: عندما يُشكل الإسلام فارقًا نوعيًّا في سلوك زيد مع شريكيه، ومع كل من حوله من الأفراد والجماعات والمؤسسات، والمجتمعات.. بل والوجود بأسره...فارق يجعل سلوكه مع غيره يتمايز عن سلوك أتباع أي دين آخر مع غيرهم.

وهنا يثور التساؤل الذي انتظرنا الإجابة عليه طويلًا ألا وهو: ماذا يكون ذلكم الفارق؟!

---

[12] - قد يقول قائل: إن ما تحمله كلمة مسلم للإنسان نفسه هو شعوره أنه يختلف في غاياته الماثلة في دخول الجنة عما سواه من الناس الذين ينتمون إلى الأديان الأخرى... وإن كان ذلك القول صحيحًا، إلا أن ما يهمنا هنا هو توضيح ماذا تحمل كلمة مسلم من معنى عندما يصف بها إنسان غير مسلم شخصًا آخر.

[13] - بالطبع فإن القول بأن ما يميز دينًا ما هو كونه له شعائر أو طقوس تعبدية خاصة به، هو أمر لا يمكن أن يكون مدعاة لتفضيل دين على آخر على نحو يجذب الآخرين لهذا الدين أو يصدهم عن ذاك، وإنما يظل ما يفرضه دين ما في تعامل أتباعه مع بعضهم البعض، ومع غيرهم من أتباع الديانات والملل الأخرى، هو الذي يميزه عما سواه..هذا إذا ما كانت ثمة مفاضلة لدين على آخر من قبل فرد قرر أن ينتمي إلى دين ما دون غيره من الأديان.

الواقع أن ذلكم الفارق لا بد أن يكون شيئًا يسمو على العدالة التي تفرضها الفطرة الإنسانية السوية على زيد في التعامل مع الآخرين. وهنا نتساءل.. ما درجة التعامل تلك التي تسمو على درجة العدالة مع الآخرين؟!

الإجابة: إنها درجة الشعور الغامر نحوهم بالرحمة.. الرحمة التي تدفعه للتفضل عليهم والإحسان إليهم سواء في قوله أو فعله.[14]

---

14 - الرحمة رِقّةٌ تقتضي الإحسان إلى المرحوم ، وقد تُستَعمل تارة في الرِقة المجرَّدة وتارة في الإحسان المجرَّد عن الرقة ، نحو رَحِم اللهُ فلانًا، وإذا وُصِف به البارئ فليس يُراد به إلا الإحسان المُجرَّد دون الرِّقة، وعلى هذا رُوي أنّ الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رِقة وتعطف .(مفردات القرآن للراغب الاصفهاني 347/1)

ومقتضى الرحمة هو إيصال الخير إلى الغير، حتى وإن كان هذا الخير مكروهًا إليه مبغضًا من قبله، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: "والرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها؛ فهذه هي الرحمة الحقيقية. فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك. فمن رحمة الأب بولده :أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره ويمنعه شهواته التي تعود بضرره ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه. فهذه رحمة مقرونة بجهل" إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق : محمد حامد الفقي ،،ج2، ط2(بيروت:دار المعرفة ، 1975) ص 174. وقد ورد لفظ الرحمة في القرآن الكريم في نحو مائتين وثمانية وستين موضعًا. وقد ورد في أكثر مواضعه بصيغة الاسم، نحو قوله سبحانه:﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة:37) وورد في أربعة عشر موضعًا بصيغة الفعل، نحو قوله سبحانه ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾(الأعراف:149) فعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص -رضي اللّه عنهما – قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، اِرْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الْمُؤَدِّبُ , عَنْ أَبِي بَكْرٍ , وَمُسَدَّدٍ , عَنْ سُفْيَانَ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ , فِي الْبِرِّ, عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي عُمَرَ, عَنْ

سُفْيَانَ , وَقَالَ : حَسَنٌ صَحِيحٌ. وفي تفسير ذلك يقول شمس الدين السفيري : فندب - صلى الله عليه وسلم - إلى الرحمة والعطف على جميع الخلق من جميع الحيوانات، على اختلاف أنواعها في غير حديث، وأشرفها الآدمي.(شرح صحيح البخاري(50/2-51)

والواقع أن ثمة تقاربًا وتداخلًا واضحًا في معاني هذه الكلمات الثلاث؛ فالإحْسَان لغةً ضِدُّ الإساءة، ومصدره أحسن؛ أي جاء بفعل حسن (الفروق اللغوية للعسكري:193/1.وقال الراغب: "الإحسان على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملًا حسنًا" (المفردات، ص:236) وقوله صلى الله عليه وسلم:(الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (رواه مسلم) قال النووي : في شرح الحديث: (هذا من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وسلم، لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربّه سبحانه وتعالى ، لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى بها.

وبصفة عامة فالإحْسَان نوعان: أ- إحسان في عبادة الخالق، بأن يعبد الله كأنَّه يراه فإن لم يكن يراه فإنَّ الله يراه. وهو الجِدُّ في القيام بحقوق الله على وجه النُّصح، والتَّكميل لها. ب- إحسانٌ في حقوق الخَلْق... هو بذل جميع المنافع مِن أي نوعٍ كان، لأي مخلوق يكون، ولكنَّه يتفاوت بتفاوت المحْسَن إليهم، وحقِّهم ومقامهم، وبحسب الإحْسَان، وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحْسِن وإخلاصه، والسَّبب الدَّاعي له إلى ذلك.

وإذا حاولنا التفريق بين الإحسان والإنعام والإفضال والفضل فسنجد أن الفرق بين الإحْسَان والإنْعَام:أنَّ الإحْسَان يكون لنفس الإنسان ولغيره، تقول: أَحْسَنْتُ إلى نفسي، والإنْعَام لا يكون إلَّا لغيره (لسان العرب لابن منظور:114/13) بينما الفرق بين الإحْسَان والإفضال: أنَّ الإحسان: (النفع الحسن)، والإفْضَال: (النَّفع الزَّائد على أقلِّ المقدار)، وقد خُصَّ الإحْسَان بالفضل، ولم يجب مثل ذلك في الزِّيادة؛ لأنَّه جرى مجرى الصِّفة الغالبة" الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص:23. " والفرق بين الإحْسَان والفضل: إنَّ الإحْسَان قد يكون واجبًا وغير واجب، والفضل لا يكون واجبًا على أحد، وإنَّما هو ما يتفضَّل به مِن غير سبب يوجبه " الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص:24

ومثل هذا الشعور يجعل سلوك زيد- كمسلم - لا يقف عند تحري العدالة في الأخذ والعطاء، أو الحقوق التي يطلبها من شريكيه، والواجبات التي يضطلع بها نحوهما، وإنما يتخطى ذلك إلى التفضل عليهما ببذل مزيد من الجهد في العمل عما يبذلاه .. والتغاضي عن تقصيرهما إذا ما كان لأمر خارج عن إرادتهما، وتحمل عبء العمل عنهما إذا ما ألم بهما عارض يمنعهما من العمل، والعفو عن زلاتهما إذا ما أخطئا التقدير أو التصرف في شأن ما من شؤون العمل، والأخذ بأيدهما للارتقاء بمهاراتهما وقدراتهما بما يجعلهما أكثر قدرة وعطاء.. كل ذلك وغيره.. دون أن ينتظر منهما جزاءً ولا شكورا !!

هذا ما ينبغي أن يدركه كل مسلم أن دينه قد جاء لإقامته في هذا الوجود...حتى إن العلة الرئيسة التي أعلن القرآن أنها تقف خلف إرسال نبيه صلى الله عليه وسلم لم تكن إقامة العدل، وإنما تتضمن- بداهة- ذلك العدل، ثم تعلوه إلى تحقيق الرحمة لكل العالمين، وليس للمسلمين وحدهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:107)

أما معني الفضل فكما جاء في التوقيف للمناوي: الإحسانُ ابتداءً بلا علّة وهو كذلك :الزيادةُ على الاقتصاد، وفي مختار الصحاح(ف ض ل) : الفَضْلُ والفَضيلةُ ضد النقص والنقيصة والإِفْضَالُ الإحسان.

وهذا ما أكده نبيه - صلى الله عليه وسلم - في قوله "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ, ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ" [15] وقوله "لَا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ" [16] ولنلاحظ هنا أن المصطفى لم يقل هنا من لا يرحم المؤمنين، وإنما قال من لا يرحم الناس.. كل الناس.

وهو ما يعني أن زيدا ذلكم المسلم مأمور من قِبل دينه ألا يقف في تعامله مع الآخر- أيًّا كانت ملته- عند ما تأمره به فطرته الإنسانية العادلة، وإنما مأمور أن يرتقي من حالة العدل إلى حالة الإحسان إليه في قوله وفعله، على نحو يُمكّنا من القول: إن أي إنسان مسلم لن يكون إنسانًا مسلمًا بحق إلا إذا سعى قدر طاقته أن يحمل على عاتقه- إلى يوم يلقى ربه- الاضطلاع بالمهمة التي بُعث من أجلها رسوله صلى الله عليه وسلم، ألا وهي إقامة الوجود الرحيم(الطيب) للعالمين من حوله.

ولن يتسنى للمسلم ذلك إلا إذا كان محسنًا لغيره في فعله وقوله وشعوره.. فهو يُحسن إلى الجاهل بعلمه وحلمه، والذليل بجاهه وعزه[17]، والفقير والمسكين بماله، والضعيف بقوته،

---

15 - رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الْمُؤَدِّبُ, عَنْ أَبِي بَكْرٍ, وَمُسَدَّدٍ, عَنْ سُفْيَانَ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ, فِي الْبِرِّ, عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي عُمَرَ, عَنْ سُفْيَانَ , وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ

16 - رواه مسلم

17 - فإذا لم يتمكّن المسلم من قضاء حاجة أخيه وإيصال النفع إليه بنفسه، فعليه أن يكون له عونًا في سبيل تحصيلها، وذلك بالسعي معه لدى من يستطيع ذلك، امتثالًا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم لأصحابه بالشفاعة بقوله" اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا".

والمريض بصحته، والمسيء بعفوه وصفحه، والقاطع بوصله[18]، والمنكوب بغوثه، والكبير والصغير بشفقته ورأفته، والعاصي بدعوته إلى الهدى.. وإن لم يكن ذلكم همه وديدنه... فأنى له أن يدعي أنه من أتباع نبي الرحمة للعالمين[19] ؟!!

---

[18] - وهذا هو المعنى الذي جاء به أكثر من حديث للرسول صلى الله عليه وسلم، حيث جاء في مسند الإمام أحمد من حديث معاذ بن أنس الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتصفح عمن شتمك.

وأخرج الحاكم من حديث عقبة ابن عامر الجهني قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة: تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك"وأخرج الطبراني من حديث علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال"ألا أدلكم على أكرم أخلاق أهل الدنيا والآخرة أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك"

[19] - وللشيخ أبي بكر جابر الجزائري قول طيب وجامع في الاحسان حيث يقول" والإحسان في باب العبادات أن تؤدى العبادة أيًّا كان نوعها من صلاة أو صيام أو حج أو غيرها أداء صحيحًا, باستكمال شروطها وأركانها, واستيفاء سننها وآدابها, وهذا لا يتم للعبد إلا إذا كان شعوره قويًّا بمراقبة الله عز وجل حتى كأنه يراه تعالى ويشاهده، أو على الأقل يشعر نفسه بأن الله تعالى مطلع عليه، وناظر إليه, فبهذا وحده يمكنه أن يحسن عبادته ويتقنها, فيأتي بها على الوجه المطلوب, وهذا ما أرشد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وفي باب المعاملات فهو للوالدين ببرهما بالمعروف، وطاعتهما في غير معصية الله، وإيصال الخير إليهما، وكف الأذى عنهما، والدعاء والاستغفار لهما, وإنفاذ عهدهما, وإكرام صديقهما.

وهو للأقارب ببرهم ورحمتهم والعطف عليهم، وفعل ما يجمل فعله معهم وترك ما يسيء إليهم. وهو لليتامى بالمحافظة على أموالهم، وصيانة حقوقهم، وتأديبهم وتربيتهم بالحسنى، والمسح على رؤوسهم .وهو للمساكين بسد جوعهم،

قد يقول قائل: هناك من الناس من يمارس الإحسان والتفضل-النابعان من الرحمة- دون أن يكون معتنقًا لدين يأمره بذلك،

والواقع أن هذه حقيقة لا يمكن إنكارها، فثمة أُناس يمتلكون نفوسًا سامية تدفعهم للإحسان إلى الآخرين (أفراد أو مؤسسات أو ربما مجتمعات)، إلا أن الإشكالية أن ممارستهم لهذا النوع من الإحسان ستظل – في النهاية- أمرًا تطوعيًّا؛ فلا يمكن إجبار شخص ما أن يكون محسنًا للآخرين، ما لم يكن ذلك عن رضا نفس وطيب خاطر. وإذا ما قرر في لحظة ما التوقف عن ذلكم الفعل الإحساني، والاكتفاء بالفعل العادل، فلن يلزمه بالعودة إلى سبيل الإحسان أحد.

وستر عورتهم، وعدم احتقارهم وازدرائهم، وعدم المساس بهم بسوء، وإيصال النفع إليهم بما يستطيع.

وهو لابن السبيل بقضاء حاجته, وسد خلته, ورعاية ماله, وصيانة كرامته, وبإرشاده إن استرشد, وهدايته إن ضل.

وهو للخادم بإتيانه أجره قبل أن يجف عرقه، وبعدم إلزامه ما لا يلزمه، أو تكليفه بما لا يطيق, وبصون كرامته، واحترام شخصيته.

وهو لعموم الناس بالتلطف في القول لهم, ومجاملتهم في المعاملة، وبإرشاد ضالهم، وتعليم جاهلهم، والاعتراف بحقوقهم، وبإيصال النفع إليهم، وكف الأذى عنهم.

وهو للحيوان بإطعامه إن جاع، ومداواته إن مرض، وبعدم تكليفه ما لا يطيق وحمله على ما لا يقدر، وبالرفق به إن عمل، وإراحته إن تعب.

وهو في الأعمال البدنية بإجادة العمل، وإتقان الصنعة، وبتخليص سائر الأعمال من الغش" منهاج المسلم ، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر، دون تاريخ)ص ص 132،130

بينما في الإسلام يختلف الأمر؛ فمن يعتنق الإسلام دينًا يعلم أن علة خلقة في هذا الوجود هو ما جاء في قول خالقه تعالي﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ ثم يبيّن هذه العلة فيقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الملك:1-2). وكذلكم يتكرر تأكيد تلك العلة في قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الكهف :7). وهو ما يعني أن إحسان المسلم في حركته في هذه الحياة، وفي تعامله مع كل من حوله، هو أمر مفروض عليه، وليس أمرًا تطوعيًّا؛ وكيف يكون ذلكم تطوعًا وتفضلًا، وهو علة وجوده بأسره؟!

أما كيفية تحقيق ذلكم الإحسان فقد فصلها له خالقه الرحمن الرحيم فيما أرسل به رسله من وحي يحمل منهجًا، إذا ما اهتدى به استطاع أن يقيم حياة تراحمية طيبة﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:97).. حياة لا ضلال فيها ولا شقاء ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه:123). ووعد من يلتزم بهذا المنهج - الذي أتى ليقيم الوجود الدنيوي الرحيم- ويكافح في سبيل تمكينه وإعلائه، حتى وإن كلفه هذا الالتزام ماله أو نفسه،

بحسنة الدنيا، ونعيم الآخرة[20]﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل: 30-32)

وقد أعلن- جل وعلا- محبته لعباده المحسنين في أكثر من آية فقال: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(آل عمران: 134)، وأخبر تعالى أن رحمته قريب من المحسنين ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف:56) وبشر عباده المحسنين بقوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (هود:115)، وبقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج:37).

---

20 -أن من يحسن في هذه الدنيا، يزيده الله حسنًا، وإحسانًا، وحسنة.. نعم يعترض المحسنين عقبات، وصعاب ليست بالسهلة، لكن الصبر هو العلاج، وهو المعين بعد الله، وعاقبة الصبر فرج في الدنيا، وأجر عظيم في الآخرة، أجر بغير حساب، ما أعظمه من أجر؛ لأنه من عند القدير، العليم، الرءوف، الرحيم، الذي عنده خزائن كل شيء، إنما يقول للشيء كن فيكون - سبحانه وتعالى. قال تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:10)

- انظر: مسفر بن سعد الغامدي،"الإحسان:أهميته أقسامه ثمراته" مجلة البحوث الإسلامية،العدد الثامن والخمسون - رجب إلى شوال لسنة 1420الجزء رقم : 58 ص 368

ولعل خير بشرى للمحسنين هي تلك التي زفتها لهم سورة الرحمن.. بعدما ذكرت أوصاف الجنتين اللتين وعد الله تعالى بهما من خاف مقامه العظيم.. عندما أقرت أن نعيم هاتين الجنتين ليس إلا جزاء إحسانهم في الدنيا ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:60) .وما زفتها لهم-أيضًا- سورة يونس ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(يونس:26)

أما من لا يؤمن أن لهذا الوجود خالقًا مهيمنًا، ولا يؤمن- من ثم- بذلكم الوعد الإلهي، ويكون تصوره للوجود مبنيًّا على عقيدة ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون:37) فإحسانه إلى هذا الوجود ليس فرضًا عليه .. وإن أحسن فليس لديه سلوان بأنه سينال مقابلًا أو مردودًا مساويًّا للتضحية والبذل والعطاء التي يتطلبها الإحسان للآخرين في هذه الحياة، وهو ما يجعل الإحسان- بهذا المعنى- أمرًا يحمل خسارة للمحسن لا يُقبل على تحملها طوعًا إلا قلة من الناس، ممن يحملون بين جنباتهم نفوسًا سامية.

بينما لدى المسلم يقين راسخ أن الله تعالى سوف يعوضه عن إحسانه في الدنيا خيرًا، أما الآخرة فسوف يؤتيه الله فيها من لدنه -جزاء إحسانه- أجرًا عظيما ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِم مِثْقَال ذَرَّة وَإِنْ تَكُ حَسَنَة يُضَاعِفهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(النساء: 40).

وهكذا؛ فالإحسان، لا العدل[21] هو أمر ملزم للفرد المسلم، وللجماعة، والمؤسسة، والمجتمع، والأمة المسلمة بأسرها؛ لأنه هو الضامن الوحيد لبناء وجود طيب ورحيم للعالمين في الدنيا، وهو الطريق الرئيس الذي يُمكّن المسلم من نيل رضوان الله-عز وجل- في الدنيا والآخرة.

بل إن توقف المسلم (فرد، مؤسسة، جماعة، مجتمع) عن ممارسة الإحسان، أو تقصيره في السعي لامتلاك المقومات التي تُمكنه أن يصبح محسنًا للوجود، مع القدرة على ذلك، هو أمر يوقعه تحت طائلة العقاب الإلهي.

ولعل كون الزكاة ركنًا من أركان الإسلام الخمس، دليل قاطع على أن إحسان المسلم للآخرين ليس أمرًا تطوعيًّا؛ ذلك لأن عدم تأديته لها متعمدًا، يخرجه من ربقة الإسلام برمته، رغم كونها إحسانًا، وليس عدلًا.

ونقتبس هنا نصا مطولا لطرح عميق لمعنى الذكاة" نقلا عن صفحة الصديق المفكر د يحي جاد على موقع الفيس بوك" [22]* الزكاة اقترنت في كتاب الله المجيد مع الصلاة : في سبع وعشرين

---

[21] - فالعدل يضمن للمجتمع الإنساني البقاء، بينما يضمن الإحسان للمجتمع الإنساني الارتقاء.. وهذا ما ذهب إليه المفكر الإسلامي الدكتور ماجد عرسان الكيلاني في سفره القيم، أصول التربية الإسلامية، دبي،(دار القلم،2006) ص ص 187-148

[22] -
ttps://www.facebook.com/yahiaredagad?hc_ref=ARSqgeY16PMNjR68aXQ6xepXk3AZX17BFqHpQCPZrARKu2-uvy0NGlEDxDgRf3B7ZrM&fref=nf

موضعاً ("أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" وارتباطُها بالصلاة، بشكلٍ شِبْهِ دائمٍ في الآيات، يدل على أهميتها وتشابهها مع الصلاة؛ في كونها [مطلوباً] مستمراً طوال العام، بعكس "الصيام السَّنَوي" و"الحج العُمْرِي" اللذَيْن جاءا منفردَيْن، وكان حَثُّ الآيات فيهما مناسِباً لذلك.

ولما صار الناس يظنون - بحسب التراث الفقهي التقليدي- أنَّ الزكاةَ هي فقط [مطلوبٌ] سنويٌّ كالصيام : كان هذا الحديث الذي نبين فيه أنَّ الزكاة [مطلوبٌ] مستمرٌّ طوال العام.

وإذا كانت الصلاة : هي [الشعيرة] اللازمة المستمرة التي تربط وتصل علاقة الإنسان بربه،

فإن الزكاة : هي [مطلوبٌ] مُتَعَدٍّ مستمرٌ؛ تربط الإنسانَ بمجتمعه وبالناس مِن حولِه،

فيكون المسلم متنقلاً، طوال حياته، بين:

-تعبدٍ لهِ لازمٍ مستمرٍ (الصلاة)، هو حق الله الخالص، [والذي أيضاً ينعكس على المسلم إيجابياً في حركته في الحياة.]

-وتعبدٍ له مُتَعَدٍّ (الزكاة)، هو حق الناس، وهو أيضاً حَقٌّ لله [باعتباره أداءً من الإنسان لفرض من فرائض الله، يتقربُ الإنسانُ إلى الله بإحسان أدائه، ويحاول به أن يتدرجَ في معارج القُرب منه سبحانه.]

فلا ينسى الإنسانُ حقَّ الله الخالص [والذي له أيضاً انعكاسٌ مباشرٌ على حركة المسلم في الحياة]،

ولا ينسى حقَّ الناس الخالص [والذي له أيضاً انعكاسٌ مباشرٌ على

حركة المسلم نحو العروج لله والقُرب منه.]
*والمتأمل في الآيات التي أَمَرت بـ "إيتاء الزكاة" سيجد أنها أشمل وأعم مِن تلك الآيات التي حَثَّتْ على الإنفاق:
-إذ التوجيهُ في الزكاة : خطابٌ لكل مسلم (فقيراً كان أم غنياً(.
-أما خطابُ "الإنفاق" فإنه لكلِّ من لديه المالُ فقط.
وهذا يدل على أن "الإنفاقَ" هو "أحد أنواع الزكاة" لا "كلها"

إذا: الزكاةُ : تزكيةٌ للنفس.
-والتزكية تتحقق حين تقدم تلك النَّفْسُ عطاءً للآخَرين بلا مقابل مادي، وإنما لوجه الله.
-والنَّفْسُ تُعْطِي مما أعطاها الله.
-وعطاءُ الله من النِّعَمِ والمواهب متنوعٌ ومتعددٌ.
-وكلُّ إنسان لا يخلو من نعمةٍ أو موهبةٍ أو خبرةٍ يستطيع بها خدمةَ أو مساعدةَ مَن حوله.
-وبهذا تكون الزكاةُ من جنس ما أنعم الله به على الإنسان وأعطاه من مواهب، أو ما اكتسب من خبرات في الحياة. فيُعْطِي الآخَرين تطوعاً منه بلا مقابلٍ؛ كي يُزَكِّيَ نَفْسَه.
فبالعطاء تزداد الرحمة بداخله.
-ويَمْنَحُ الحبَّ لِمَن حَوْلَه.
وتلك هي خلاصةُ الإنسانيةِ. إنْ حرص عليها : زادت إنسانيته واستمرت. وإن لم يكن : فإنها تتناقص ويفقدها مع السنين.
فالعامل البسيط : يمكن أن يزكي بعمله لمساعدة الآخرين المحتاجين في فترات ما طوال العام.
-والفَنِّيُّ : يمكن أن يصلح للفقراء ما احتاجوه في فترات ما طوال

العام، وصاحب السيارة : يحمل الناس فيها، ممن يحتاجون لذلك والتاجر: يعطِي مما أعطاه الله من مال،
وهكذا المحامي والمهندس والطبيب الخ،
- وهذه أمثلة فردية جداً، وصغيرةٌ جداً، فضلاً عن الأمثلة "الجماعية" و"المؤسسية"، الصغيرة أو المتوسطة أو الكبيرة، الظرفية أو الموسمية أو السنوية أو الدائمة، التي يمكن إقامتها .. إلخ

فيكون المجتمع كله مُزَكِّياً عن نفسه في كل المجالات، ومغطياً كل الاحتياجات، ولا يوجد مجال إلا ونستطيع أن نخدم المجتمع فيه، أو نخدم الفقراء والمساكين وذوي الاحتياج، وأعمالُ التطوع كثيرة جداً.

وهذا يعني ببساطة أنَّ كلَّ فردٍ عليه أن يقومَ بعملٍ تطوعي، أو أنْ يشتركَ في عمل تطوعي، مِن جِنْسِ ما يعمله أو يُجيدُهُ ويُحْسِنُهُ؛ كي يُزَكِّيَ نَفْسَه.

وبهذا تكون الزكاةُ كالصلاة : عبادةً مستمرةً متكررةً من الفرد، طوال العام، وليست مخصوصةً بيومٍ واحدٍ في العام كما انتشر بين الناس حين حصروها في الانفاق فقط؛ إذ الانفاقُ خاصٌّ بمَن لديه المالُ الذي يَزِيدُ عن حاجته فينفق منه.

*أما السؤال حول "ماذا ينفقون مِن أموالِهم ؟" فقد أجاب عليه قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ : مَاذَا يُنفِقُونَ ؟ قُلِ : العفوَ، كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" [البقرة 219]؛ فبعد أنْ جاءت الآياتُ بالحث على الإنفاق والترغيب فيه، لسدِّ حاجات الفقراء والمساكين وغيرهم ممن يحتاجون إلى الإنفاق، جاء السؤال عن

"مقدار ما ينفقونه من أموالهم". فكانت الإجابة : "العفو"؛ أي أنفِقُوا العفوَ.

وأصلُ "العفو" في اللغة : "الزيادة". فعَفَا يعفو : إذا زادَ ونَمَا. وهو هنا : "ما زاد على حاجة المرء من المال"؛ أي "ما فَضَلَ بعد نفقته ونفقة عياله بمُعْتَادِ أمثاله"؛ فالانفاق يكون من العفو بحيث لا يكون هناك ضرر ولا ضرار.

فالآية هنا تحدد المقدار في الإنفاق بـ"ما زاد عن حاجة الإنسان، في قصد واعتدال، بلا سرف ولا تقتير."

وهذا التوزيعُ للمال : يدلنا على فلسفة الإسلام في المال؛ حيث إنَّ المال هو مال الله الذي وهبه للإنسان، ومالُ الله هنا يعني "مالَ المجتمع كله"؛ يستفيد منه كلُّ خلق الله - "خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً"- ، ولكنْ لَمَّا اجتهد وكَدَّ بعضُهم في تحصيله : كان لهم بعضُ التملك له. على أن يبقى جزءٌ منه في غير مُلْكِهِم، يعودُ للأرض والمجتمع والإنسان الذي كَوَّنُوا بهم ثَرَواتهم. فلم يكن جهدهم فقط هو مَن كَوَّنَ ذلك المال وتلك الثروة. وإنما ما ذكرنا أيضاً.

والزكاةُ : تزكيةٌ للنفس،

والنفس تُؤْتِي زكاتَها عن كل ما وهبها اللهُ مِن نِعَم،

والمالُ هو أحد النعم، وليس كلها.

]وعليه[، فمَن أراد أنْ يُزَكِّي، فعليه:

-أنْ يعطيَ الآخَرين مما أعطاه الله مِن نِعَمٍ ومهاراتٍ وخبراتٍ؛ فيقدمها لِمَن يحتاجها دون مقابل،

-وأنْ يكونَ عمله هذا مستمراً على الدوام، [قَدْرَ استطاعته]، لا

يوماً معيناً في العام [فقط[،
-وكذلك يُنْفِق مِن ماله أيضاً.[..]
فإيتاءُ الزكاة : أمرٌ لكل مؤمن كالصلاة، وحَصْرُها في الإنفاق بالمال : سيحصرها فقط في الأغنياء مالياً، وسيُخْرِجُ عدداً كبيراً مِن المؤمنين مِن مفهوم "إيتاء الزكاة". بينما الزكاةُ : مفهوم واسع يستطيعُ إيتاءَهَا الغنيُّ والفقير".

وبعد هذا هذا النص المطول الذي يطرح مفهوما عميقا للذكاة لنا أن نتساءل: *لمَ جعل الإسلام الإحسان الذي تقع الزكاة منه موقعا جوهريا فرضًا على معتنقيه؟*

وللإجابة على ذلك نقول: إن سعي المرء منا لتحقيق مقومات الوجود الرغيد لنفسه ولمن يعول فقط، بصورة لا يبغي فيها على أحد، هو أمر عادل لا غبار عليه.. غير أن هذه العدالة لا تُؤمّن للمرء منا وجودًا رغيدًا بشكل دائم[23]. فحتمًا أن ما يستطيع

[23] - غير أن هذه العدالة قد تستند إلى معايير مختلفة غير متفق عليها بين بني الإنسان جميعهم، وهو ما يتطلب أن تكون ثمة معايير كلية ضابطة لها. ويمكن القول:إن المعيار الذي يضمن ضبط العدالة هو وجود قيمة أخرى تعلو عليها، ألا وهي الإحسان؛ ذلك لأن العدالة وحدها قد تكون سببًا في مقابلة السوء بالسوء، ويصبح العدل هنا هو مجاراة الأفعال السيئة بأفعال سيئة مثلها ..على نحو يجعل من مجتمع ما لا يتحقق له استقرار إذا ما تجاوز سلوك بعض أبنائه - لخلل ما في فطرتهم- حدود الإنسانية ، مما يجعل الرد من الآخرين على تجاوزهم هذا أمرًا حتميًّا وعادلًا، وقد يرى هؤلاء المعتدون أن مثل هذا الرد هو اعتداء عليهم،فيردون

المرء منا إحرازه اليوم من مقومات هذا الوجود المادي الرغيد- وهو في شبابه متمتعًا بكامل قوته وصحته- لن يستطيع إحرازه غدا في هرمه، أو اليوم إذا ما أصيب بمصاب ما في صحته، أو بغت عليه قوة قاهرة تتعامل معه بالمنطق الحيواني الصراعي ،..أو ما إلى ذلك من أسباب وعلل بشرية وطبيعية، تمثل تهديدًا محتملًا لاستمرارية امتلاكه، أو امتلاك أبنائه لمقومات الوجود الرغيد.

ولو عممنا هنا مبدأ العدالة- تبعًا لمنهجية الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" في اختبار سلامة قاعدة أخلاقية ما، عبر تعميمها على البشر جميعًا- فليس ثمة فرض على أحد من المحيطين بذلك الشخص الذي أصيب في ماله، أو جسده، أو غير ذلك من مصاب - ما دام ليس لديه عندهم سابقة فضل- مد يد العون له لانتشاله من مصابه هذا؛ وهو ما سيؤدي به إلى تبدل حياته

باعتداء أكبر..وهكذا؛ فإن مثل هذا المجتمع سيعيش حالة من الصراع المتصاعد التي تلفته عن البناء، كما أنه سيعاني من اختلال قدرة مكوناته على البناء نتيجة دخولهم في دوامة القصاص.

ثمة إشكالية أخرى في العدل تتجلى في كونه يمثل القوى المحافظة أو الاستقرار؛إنه التوازن ،إنه أشبه بالنقطة صفر.. لكنه لا يشكل انتقالًا إلى نقطة أعلى من نقطة الصفر، وهي المتمثلة في روح الإحسان والتفضل والعطاء.. فالحضارات لا يمكن أن تنبني على العدالة وحدها، وإنما تنبني على العطاء والبذل والتضحية لو لزم الأمر بالنفس ذاتها.. فالتعامل العادل في العطاء يعني حرمان الضعفاء الذين ليس لهم على أحد سابقة فضل من امتلاك مقومات الوجود الرئيسة مما يهدد استمرارية بقائهم بأسره.

الرغيدة إلى حياة قاسية تعيسة، دون أن يبالي أن يسعى لدفع هذه التعاسة عنه أحد.

وإذا ما سحبنا مبدأ العدالة نفسه - أيضًا- على مجتمع معين ليس له سابقة فضل على غيره من المجتمعات، وأصابه بلاء عام كفيضان، أو زلزل، أو وباء، أو مجاعة، أو ما إلى ذلك من كوارث...فليس ثمة فرض- أيضًا- على المجتمعات الأخرى أن تمد له يد العون؛ وهو ما يُعرضه إلى معاناة قد تصل به إلى هلاك جل أبنائه...دون أن ينصت إلى استغاثاتهم أو يلتفت لمأساتهم أحد!!

وهكذا؛ ثمة أمر بدهي لابد أن يضعه المرء منا في حسبانه، ألا وهو أن ضمان استمرارية امتلاكه مقومات الوجود الرغيد هو أمر غير يقيني، وثمة احتمال قائم لأن يتعرض لخطر ما يهدد تلكم المقومات. بل ثمة احتمال لمرور المرء منا بخطوب تهدد وجوده عينه.. والحالة الوحيدة التي تنجيه من آثار هذا الاحتمال المرعب إذا ما تحقق، هو أن يكون المبدأ الذي يسود سلوكه، وسلوك الآخرين من حوله، هو الإحسان، لا العدل.

غير أن المتأمل في جوهر السلوك الإحساني يجد أنه سلوكًا يقوم على التضحية التي يبذلها المحسن من ماله، أو وقته، أو جهده، أو غير ذلك، لطرف آخر دون أن ينتظر من ذلكم الطرف جزاءً ولا شكورًا. وبالطبع فإن تحمل هذه التضحية أمر يصعب- كما أشرنا سلفًا- أن يرتقي إليه إلا قلة من الذين يمتلكون فطرة إنسانية سامية؛ تدفعهم إلى الإحسان إلى غيرهم عن طيب خاطر.

وهو ما يعني أن المرء منا إذا ما أصابه مكروه اليوم أو غدًا، فليس ثمة ضمانة له أن يجد فيمن حوله أحدًا من هؤلاء المحسنين الذين تدفعهم فطرتهم السامية لأن يضحوا بقدر ما من وقتهم أو مالهم لإخراجه من مصابه هذا.. وهو ما يجعل قلب المرء منا يظل - مهما حاز من مقومات الحياة المادية اليوم- وجلًا أن يصيبه غدًا مكروه يذهب بما يملك من هذه المقومات، دون أن يجد له من محسن عون ولا سند.. وهو ما يعني أن الحالة الوحيدة التي ينتفي فيها ذلكم الوجل، وتُؤمن للمرء منا مقومات الوجود الطيب طيلة حياته الدنيا هي تلك التي يكون فيها الإحسان ملزمًا لجميع المحيطين به، كل حسب استطاعته.

ولا ريب أن هذا الإلزام لن يتحقق فعلًا إلا إذا كان ذلك أمراً مفروضًا على الجميع، من قبل قوة عليا قادرة على تحقيق أمرين:

أ: تعويض المحسنين عما يبذلوه من مالهم أو جهدهم، وربما أرواحهم، في مرحلة لاحقة من الوجود.. هي اليوم الآخر.. فدون ذلك لن يعوض هؤلاء المحسنين عما بذلوه للآخرين في حياتهم الدنيا شيء. (24)

ب: القصاص ممن امتلك القدرة على مد يد الإحسان لمن كان في حاجة لهذا الإحسان .. ولم يبال أن يكون لغيره من المحسنين.

---

24 - اللهم إلا شعور بالامتنان يغمره من قِبل من أحسن إليهم. في حياته أو ذكر طيب له بعد مماته.

وهذه القوة العليا المهيمنة لن تكون إلا رب الأرباب الرحمن الرحيم، الذي كتب الإحسان على كل شيء[25]..تعالى عما يشركون علوًا كبيرًا.

وهكذا؛ فدون الإيمان بالله تعالى، الذي يجعل الإحسان أمرًا مفروضًا، وليس اختيارا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:90).لن تكون ثمة ضمانة حقيقية لأي إنسان أن يعيش حياة طيبة آمنة تغمره فيها- وتغمر الجميع من حوله- روح التراحم والإحسان.

وإذا كان أمر الله تعالى لنا بالعدل في هذه الآية الكريمة قد أتى في آية أخرى مع من نكره ونعادي﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:8) فلا يليق بنا أن تكون العدالة هي نفس الدرجة التي نتعامل بها مع من نسالم أو نوالي...لذا كان الإحسان هو ما يليق بنا أن نتعامل به مع هؤلاء.

---

25 - فعن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ. وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» . رَوَاهُ مسلم.

وهكذا؛ فدون الاضطلاع بذلكم السلوك الإحساني الذي هو الضمانة الوحيدة لإقامة الوجود الدنيوي الرحيم للعالمين.. فلا مجال لوصف فرد أو مؤسسة أو مجتمع بكونه مسلمًا حقًا.

والواقع أن تحقيق ذلكم الوجود الذي يسوده الإحسان والتراحم في واقعنا المعاش، سيظل أملاً بعيد المنال دون بذل الجهد من قبل علماء الإسلام ومفكريه ودعاته لترسيم سبل تربية وإعداد الإنسان الذي يحقق العدالة في سلوكه؛ حتى تكتمل إنسانيته بداية، ثم يسمو في سلوكه من العدالة إلى الإحسان بما يؤهله لأن يصبح لبنة صلبة في بناء المؤسسات والجماعات المسلمة المحسنة، التي تشكل معًا المجتمع الإسلامي المحسن للبشرية جمعاء. مجتمع خير أمة أخرجت للناس.

ولا غرو أن أي فهم يُقدم للإسلام لا يرسم سبل بناء ذلكم المسلم المحسن، المفضي إلى إقامة مؤسسات إسلامية محسنة، تتآزر معًا لبناء مجتمع إسلامي لا يُحسن لأبنائه فقط؛ وإنما يمتلك مقومات الإحسان للبشرية جمعاء،. لا غرو أنه طرح فكري ينم عن فهم قاصر لحقيقة الإسلام. فإن لم يسع الإسلام لأن يقيم للإنسانية جمعاء هذا الوجود الإحساني التراحمي.. فما الدين الذي يسعى لذلك إذن ؟! وإذا لم يكن ذلكم هدف الإسلام ومبتغاه ..فهل يمكن أن يكون الإسلام – حينها- دينًا صادرًا عن الإله الرحمن الرحيم؟![26]

---

[26]- فاكتفاء دين أو مذهب اجتماعي ما بالسعي إلى إقامة مجتمع العدالة، لا يقدم للإنسان ضمانة كافية لعدم تعرضه للمعاناة في هذا الوجود. فالعدالة وحدها يمكن

وفيما يأتي نستعرض الملامح العامة لسبل إحسان الفرد المسلم للوجود من حوله باعتباره كيانًا مستقلًا.. أولًا، ثم سبل إحسانه لهذا الوجود عندما يكون لبنة في بنية جماعة أو مؤسسة.. ثانيًا.

أن تخلق وجودًا لا يغاير في وضعه وجودًا حيوانيًّا عادلًا متعاونًا، مثلما هو وجود عالم النمل أو النحل.. لا أحد يبغي فيه على أحد. إلا أن هذا يجعل غاية هذا الوجود تقف عند تحقيق التزود العادل من متطلبات الحياة المادية لأفراد المجتمع الواحد..مما يجعلها غاية لا تعلو على الوجود المادي. نعم، هو وجود أفضل بكثير من عالم الغاب، إلا أنه يفتقد إلى غاية عليا تبرر المعاناة التي تُبذل في الحصول على المقومات المادية للبقاء.... وهنا جاء وصف القرآن للإنسان الذي لا يعرف علة خلق ربه له- بأنه سفه نفسه﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة:130)

لذا لابد أن يكون ثمة غاية أعلى للحياة.. غاية لا يكتفي فيها المسلم الذي يتبع ملة إبراهيم حنيفًا بالكفاح من أجل تلبية المتطلبات المادية له ولمن يعول.. وإنما يمتد فيها عمله وكفاحه من أجل إعالة الآخر المحتاج.وتوفير مقومات الوجود الكريم له. سعيًا لبناء الوجود الرحيم، واضطلاعًا بالمهمة الرئيسة التي من أجلها خُلق؛ ألا وهي الخلافة التي كلفه بها ربه الرحيم.. حتى ينال رضوانه –تعالى- في الدنيا والآخرة.

أولاً:

سبل إحسان الفرد المسلم

باعتباره كيانًا مستقلاً للوجود

لا مراء أن ارتقاء سلوك الإنسان المسلم من درجة العدل- التي هي سمة الإنسانية- إلى درجة الرحمة المفضية به إلى التفضل والإحسان، والتي تمنحه وصفًا يتجاوز كونه فقط إنسانًا، إلى وصفه بكونه إنسانًا ومسلمًا في الوقت نفسه.. لا مراء أن ذلكم ليس بالأمر الهين، لأنه أمر يتطلب منه إدراكًا معرفيًّا لا يقف عند إدراك سبل ضمان عدالة آثار سلوكه عليه، وعلى الآخرين اليوم، أو غدًا .. وإنما يسمو إلى إدراك سبل ضمان مساهمة كل سلوك يقوم به في بناء الوجود الرحيم: له وللآخرين من حوله، اليوم أو غدًا.. على النحو الذي يجعله يُسهم في النهاية في بناء مجتمع (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (آل عمران: من الآية 110) وعلى نحو يُرضي عنه ربه الرحمن الرحيم في الدنيا، ويؤهله لرضاه عنه في الآخرة .. رضا ليس بعده سخط.

وهكذا: إنه إدراك يحمل رؤية كلية ينسجها على هدى نور كتاب الله المقروء (الوحي الإلهي) الذي حدد له الغايات التي عليه أن يتحرك لتحقيقها في هذا الوجود، ورسم له السبل الرئيسة

لكيفية تحقيقها، أولًا. وعلى الفهم الواعي لكتاب الله المنظور(الكون)، ثانيًا، وعلى القراءة اليقظة لتجليات الحراك الإنساني في هذا العالم الذي يشهد تغيرًا لا يكاد يعرف التوقف، ثالثًا.

ومثل هذا الإدراك السامي لحقيقة دوره في بناء الوجود الرحيم، وسبل الاضطلاع بهذا الدور؛ هو الذي يحتم عليه أن يكد في بناء نفسه ليصبح مؤمنًا قويًّا في علمه، وفي عمله، وفي علاقته بربه؛ حتى يستطيع أن يمارس الإحسان للوجود من حوله، في كل حركة من حركاته، أو سكنة من سكناته.

والواقع أن إحسان الفرد المسلم للوجود من حوله- باعتباره كيانًا مستقلًا - لا يقف عند إحسانه لأفراد أو جماعات أو مؤسسات المجتمع المسلم، وإنما هو إحسان يمتد ليتخطى تخوم المسلمين؛ حتى يصل إلى كل بقعة من بقاع الدنيا.. وكيف لا وهو مأمور أن يكون رحمة، ومن ثم، محسنًا للعالمين.

غير أن المتأمل في واقعنا كأمة الإسلام، مقارنة بأمم الدنيا من حولنا، يجد أن جل الأمم التي تنتمي إلى الشرق والغرب، هي الآن أكثر منا علمًا وتقدمًا وقوة... وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل يمكن للمسلم منا أن يمارس الرحمة والتفضل والإحسان إلى من هم أقوى منه وأغنى، وأكثر علمًا منه وتقدمًا؟!

وهل يمكن أن يمارسها معهم وأوليات العدالة، ولا نقول الإحسان ليس لها وجود عملي في سلوكيات كثير من أبناء

ومؤسسات وجماعات المجتمع الإسلامي الذي ينتمي إليه.. حيث يستحل بعض أبنائه، وبعض جماعاته أموال ودماء وأعراض البعض الآخر، بحجج وادعاءات تستند إلى فهم قاصر يتنافى مع جوهر الدين الذي ما جاء إلا رحمة للعالمين .. وحيث يرفل بعض أبنائه في نعيم الملذات؛ التي يحوزها كثير منهم بما اكتسبته يداه من مال حرام- بينما يحصد الموت أرواح بعضهم الآخر من التهجير، والتشرد، والفقر، والجهل، والمرض....وهلم جرا؟!

إذا كانت الإجابة في الغالب الأعم هي لا.. فلنا أن نتساءل: متى يمكن أن تتحقق له هذه الصفة؟!

الواقع أنها لن تتحقق لهذا المسلم ما لم يسع لأن يصبح لبنة صلبة في بناء مؤسسات(علمية وتكنولوجية واقتصادية.. إلخ) متطورة، تسهم في بناء مجتمع مسلم قادر على تجاوز الوضعية المفجعة التي يعيشها الآن، ثم تسهم -بعدها- في جعله مجتمعًا آخذًا بيد البشرية نحو مزيد من الرقي والتقدم الأخلاقي والحضاري.. مجتمعًا بانيًا للوجود الإنساني الرحيم.

وهذا لن يتحقق له إلا إذا كان أكثر قدرة على العمل والإنتاج والإبداع من غيره، وهو ما لن يتسنى له إلا إذا كان أكثر اجتهادًا في بناء نفسه علميًّا ومهاريًّا- منذ أن يكون طالبًا على مقاعد الدراسة- من غيره من أبناء المجتمعات المتقدمة، أو على الأقل يضاهيهم. مستغلا أقصى طاقة منحها ربه إياها، عالمًا أنه مكلف من قبل ربه باستغلال وسعه ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا

مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(البقرة: من الآية 286) . وهو أمر لن يتأتى له دون أن يلبى نداء ربه بأن يصبر ويصابر في استغلال ما وهبه من طاقات حتى يُمّكن للدين الذي ارتضاه له ربه الرحمن الرحيم في هذه الأرض﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(آل عمران: 200) فدون توافر شروط الصبر والمصابرة والرباط والتقوى معًا .. لن يكون لمسلم من الفلاح نصيب.

ولعل خير دليل على مستوى السلوك الذي ينبغي أن يعيشه الإنسان المحسن من الكد الذي لا يتوقف؛ على نحو لا يدانيه فيه صاحب دين آخر؛ هو ربط القرآن الكريم بين المستوى الرفيع لأداء المسلم لشعيرة قيام الليل بين يدي ربه الرحيم، وبين الإنفاق من ماله على المحتاجين،. فها هي مواضع قرآنية ثلاثة تكرر نفس المعنى تقريبًا:

1- فتصف سورة (الفرقان) عباد الرحمن – من بين ما تصف- أنهم رغم كونهم يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، إلا إنهم يكدحون نهارًا فلا يكسبون فقط ما يكفي حاجتهم وحاجة من يعولون، وإنما يتوافر لهم مزيد من المال فينفقوه على غيرهم، دون إسراف ولا تقتير﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)﴾

2- ويتكرر المعنى في سورة (السجدة)﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16) ﴾

3- ثم تؤكد سورة (الذاريات) على صفات المتقين المحسنين بنفس المعنى أيضًا﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19) ﴾.

وهكذا يُشير القرآن في المواضع الثلاثة إلى ذروة جهد المسلم في التقرب لربه العظيم، عبر قيامه جل ليله بين يديه، وإلى ارتباط هذا المستوى الرفيع من الجهد التعبدي- الذي لا يكاد يذوق معه صاحبه طعم النوم ليلًا إلا قليلًا- بالعمل الدءوب لكسب الرزق نهارًا، على نحو لا يُمكّنه فقط من كسب ما يكفيه من نفقات نفسه ومن يعول، وإنما يُمكّنه أيضًا من كسب قدر من المال يتخطى نصاب الزكاة في نهاية كل حول، فينفق منه، ويحسن به إلى كل محتاج، حتى ولو كان غير مسلم.

إن تلكم الآيات الكريمات تكاد تقول لنا هذا هو الإنسان الجدير بأن يوصف بالإنسان "المسلم بحق". فها هو المشهد القرآني في سورة السجدة، يقرر – باستخدام إنما التي تفيد الحصر مع القصر مع التوكيد- أن هذا هو حال من يؤمن بآيات الله تعالى... وكما لو كان من لا يصل به الحال إلى ذلكم السلوك لا *يؤمن بحق بآيات الله تعالى* .

وفي سورة الفرقان يتحدث المشهد القرآني عن سمات عباد الرحمن، وكأن من لا يتسم بهذه السمات - التي تجعله رحمة

للعالمين- لا يليق به أن يدّعي أنه عبد للرحمن، وهو الادعاء الذي يعلنه للعالمين على مدار الليل والنهار في صلواته الخمس عندما يقر -بعدد ركعاتها- في سورة الفاتحة، أنه لا يعبد إلا ربه رب العالمين؛ الذي تتصف ربوبيته للعالمين أنها ربوبية صادرة من الرحمن الرحيم.

نفس الأمر يتكرر في المشهد الذي حوته سورة الذاريات، والذي يصف المتقين بـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾، وكيف أنه يعلن لنا أن هؤلاء المحسنين استحقوا الوصف الإلهي بأنهم محسنون؛ لكون أعينهم لا تكاد تذوق النوم ليلًا إلا قليلًا ..أما أجسادهم فهي أيضًا لا تكاد تذوق الراحة نهارًا إلا يسيرًا.. وأنى لها أن تعرف لهذه الراحة مذاقًا وهم يضربون في الأرض ليعولوا بفائض كدهم - أيضًا- كل سائل ومحروم؟!

كذلك ثمة دليل على مستوى السلوك الذي ينبغي أن يعيشه الإنسان المحسن، والذي يتطلب كدًا واجتهادًا لا يكاد يتوقف، على نحو لا يدانيه فيه صاحب دين آخر؛ هو تلك المسؤولية الملقاة على عاتقه، والماثلة في التحرك الدؤوب لحماية رزق المستضعفين في الأرض؛ وهو ما تجلى فيما عرضته سورة الكهف حول عزم النبي موسى- سلام الله عليه -على أن يسير أحقابًا مهما لاقى في مسيرته تلك من نصب، ليتعلم من العبد الصالح مزيدًا من الرشد. ثم يكون ثُلث ما تعلمه من ذلكم الرشد - في هذه الرحلة النبوية الشاقة - هو مسؤولية المسلم في الحفاظ على رزق أي مستضعف من أي بغي يقع عليه﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ

يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾(الكهف:79).

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أنها لم تذكر كون هؤلاء المساكين المستضعفين مؤمنين أو غير مؤمنين؛ وكأنما تقول لنا أن علة إرسال نبي وعبد صالح لهم من قبل رب العالمين، الرحمن الرحيم، المتكفل برزق خلقه؛ حتى ولو كانوا غير مؤمنين- هو حفظ رزقهم من أن يبغى عليه أحد.

وفي ذلكم تذكير لكل مؤمن أنه مسئول عن حماية رزق كل إنسان مستضعف من أي بغي يتهدده، بغض النظر عن كونه مسلمًا أو غير مسلم – إذا ما استطاع إلى ذلكم سبيلًا – وأنه مسئول عن التكفل برزقه، إذا ما فقد مصدر رزقه، أو كان غير قادر على أن يحصل من الرزق ما يسد به رمقه، أو لم يجد لكسب الرزق طريقًا.

وهكذا؛ فوقوف المسلم عند ممارسة العدالة دون الانتقال إلى الإحسان-مع امتلاك القدرة على ذلك- يعني أننا لن نستطيع وصفه إلا بكونه إنسانًا يؤدي الشعائر التعبدية التي أمره بها الدين الذي ينتمي إليه(صلاة، صيام، حج) دون أن تكون ثمة فاعلية حقيقية لتلكم الشعائر في حركته في هذه الحياة، مما

يجعل إسلامه يظل منقوصًا، ولن يرتقي به إلى أن يكون من زمرة ﴿الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[27]

ثانيًا:

سبل إحسان الفرد المسلم للوجود كعضو في جماعة أو مؤسسة

عندما يكون المرء منا عضوًا في جماعة أو مؤسسة ما.. متى نستطيع أن نصف سلوكه بالسلوك الإحساني؟

الواقع أن وصف هذا السلوك بكونه إحسانيًّا يتطلب أن يكون سلوكًا أسمى من السلوك الإنساني العادل؛ الذي يسعى خلاله إلى الحصول على حقوق تساوي الوجبات التي يضطلع بها؛ سواء في تعامله مع باقي أفراد المؤسسة، أو مع وحداتها، أو مع

[27] فآيات سورة الأنفال التي حصرت من هم جمعت بين إقامة الصلاة والإنفاق- بل ومعظم الآيات التي ذكرت الصلاة.. ذكرت معها الزكاة كصنوان لا ينفصلان﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(الأنفال:2-4)

المؤسسة ككل، أو مع جمهورها، أو مع المؤسسات التي لها بها صلة.[28]

والواقع أن هذا الإحسان لن يتسنى له ما لم يكن متقنًا للعمل الذي ارتضى أن يضطلع به في هذه المؤسسة على خير وجه. ولن يتسنى له هذا الاتقان إلا إذا امتلك الصبر الكافي على تحصيل العلوم والمعارف المتطورة التي تؤهله لإنجاز أي عمل يُكلف به على أحسن صورة.

وإذا كانت سلامة نيته في اتقان العمل شرطًا رئيسًا لإحسان القيام به، فإن سلامة نيته هذه لن تجدى شيئًا إذا ما قصر في تحصيل تلكم العلوم والمعارف.

بل إن سلامة نيته تلك إذا ما ترتب عليها ما لا يُمكّن المؤسسة التي ينتمي إليها من تحقيق الأهداف التي تصبو إليها ،أو إذا ما ترتب عليها ما يصيبها بخسارة في مكانتها بين منافسيها الخارجيين .. إن سلامة نيته تلك لن تغني هنا عن تحمله المسؤولية في إضعاف هذه المؤسسة أمام الله شيئًا. ذلك لأن مثل هذه الخسارة التي تحيق بمؤسسته لعلة هو المتسبب فيها، لا تغاير في نتائجها الخسارة التي قد يتسبب فيها شخص صاحب فطرة حيوانية يعلي مصلحته عمدًا على مصلحة هذه المؤسسة.

---

28 - بل يتطلب –إذا ما اتيحت له القدرة - أن يمتد إلى حث الآخرين، الذين ينتمون لمؤسسته أو جماعته أو مؤسسات أو جماعات أخرى- على الارتقاء في عملهم من مرحلة العدل إلى مرحلة الإحسان. وإن لم يفعل ذلك فلا مراء أنه يقصر في الاضطلاع بدورة كمسلم محسن إلى الوجود.

بل إن اضطلاع المرء منا بفعل ما تبدو نتائجه العاجلة حسنة لمؤسسته أو جماعته، دون وضع آثاره المستقبلية البعيدة على الأفراد أو المؤسسات أو المجتمعات أو الإنسانية في الحسبان.. هو نوع من الخروج عن الإحسان الذي يجب أن ينبني على قراءة سليمة ومتكاملة لأثر ما هو كائن الآن على ما سيكون غدًا؛ ذلك لأن السعي إلى تحقيق فعل يبدو الآن فعلًا إحسانيًّا، دون إدراك كاف لمآلات هذا الفعل على الآخرين (أفرد، أو جماعات، أو مؤسسات، أو المجتمع برمته) مستقبلًا، هو نوع من الاستخدام القاصر للعقل، الذي قد يترتب عليه خلل جلي في وقت لاحق. وهذا ليس من الإحسان في شيء.

بل إن عدم امتلاك المسلم لمعايير سليمة يهتدي بها عند تقريره لأولوية القيام بفعل إحساني ما عن فعل إحساني آخر ..على نحو يجعله يقرر الاضطلاع بفعل يحقق لمؤسسته أو جماعته نفعًا أقل على حساب فعل آخر يحمل نفعًا أكبر ، هو أيضًا من خوارم الفعل الإحساني.[29]

---

[29] - أما إذا كان هدفه القيام بدور مكافئ للحقوق التي يحصل عليها، وقادر بالفعل على القيام بهذا الدور فهو هنا يقوم بدور إنساني، وليس إحسانيًّا.. أما إذا كان ما يقوم به من دور لا يكافئ ما يحصل عليه من حقوق فيدخل به في الفطرة غير العادلة .. وهي الفطرة الحيوانية.. أما إذا كان دوره إفساديًّا لمكانة هذه المؤسسة وقدراتها في الخفاء لعلة ما تتعلق بكراهية أو حنق على أصحابها أو من يتولى أمرها.. فهو هنا أيضًا دور شيطاني...إذن العدالة والإحسان تستلزمان حسن النية مع الفهم مع الإتقان.. بينما تتجلى الفطرة الحيوانية عندما تكون النية سيئة(الأخذ أكثر من العطاء) والقدرة سليمة.. أو عندما يكون ثمة سلامة للنية مع قصور في بناء القدرة

وبصفة عامة لن يتسنى لأي شخص مسلم- باعتباره عضوًا في مؤسسة أو جماعة- أن يكون محسنًا إلا إذا امتلك رؤية متكاملة تمكنه من تحديد طبيعة الدور الإحساني المطلوب منه الإسهام به في هذه المؤسسة، حتى يمكن أن تصبح مؤسسة إحسانية.

وهي رؤية تعتمد على إدراك سليم ومتكامل لما هو كائن من واقع المؤسسة، وما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع، في ضوء إدراك سليم ومتكامل لطبيعة الدور الذي ينبغي على المؤسسة أن تضطلع به في بناء مجتمع إسلامي قوي قادر على ممارسة الإحسان للوجود.. مجتمع ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾
(آل عمران: من الآية110)

والمعرفة التي تُمكنه من العطاء العادل.. فذاك نوع من عدم العدالة التي تدخل به في دائرة الحيوانية ذاتها

وفي النهاية

تلكم هي المعايير الرئيسة التي يمكن أن تهتدي بها أخي المسلم في تقرير من أنت؟ وأين تقف؟ وما مكانتك بين أقرانك من بني جنسك في هذا العالم؟

هل أنت بالفعل ذلكم المسلم المحسن الذي ينطبق عليك وصف نبيك محمد صلى الله عليه وسلم بأنك" تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك" فلا تهجع من الليل إلا قليلًا، متوجهًا لربك بالدعاء خوفًا وطمعًا. وتكد نهارًا في دراستك، أو وظيفتك، أو حقلك آو مصنعك أو متجرك؛ فتتعلم وتبدع وتبني وتعمر، ولا تبدع وتنتج فقط ما يكفيك أنت ومن تعول، وإنما

تبدع وتنتج ما يجعلك قادرًا على أن تكون عونًا لغيرك من المحتاجين من المسلمين، أو غير المسلمين؟!

هل أنت ذلك المحسن الذي يعطي مَن حرمه، ويصل مَن قطعه، ويعفو عمن ظلمه من الناس (وليس المؤمنين فقط) ورغم أنه قادر على أن يقتص لنفسه منهم، إلا إنه يكظم غيظه.. على نحو يجعله يستحق أن يكون أهلًا لدخول جنة عرضها السموات والأرض؟ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ 134 ﴾(آل عمران).

هل أنت ذلك المسلم المحسن الذي يُسهم في بناء خير أمة أخرجت للناس، أمة متفوقة في كل المجالات، على نحو يجعلها سندًا لغيرها من الأمم التي قد تصيبها أي كارثة طبيعية، فتهب لنجدتها، وسندًا للأمم الضعيفة التي قد يصيبها بغي أمة أخرى مفسدة في الأرض، فتهب لتحميها من بطش هذه الأمة المفسدة؟ كما فعل ذو القرنين عندما قطع مسافات شاسعة لينقذ الأمة التي كانت عند مطلع الشمس من الهلاك، لكونهم لم يكن لهم من دون حر هذه الشمس ستر، وعندما سعى بعدها – امتثالًا لأمر ربه الرحيم- لينقذ الأمة المستضعفة التي كانت بين السدين، وكاد يهلكها بغي يأجوج ومأجوج.دون أن تشير الآيات إلى أنه توجه بالدعوة لا إلى هؤلاء ولا أولئك إلى الدخول في دينه ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل

لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) ﴾(الكهف)

أم أنك ذلكم المسلم الذي لا تعرف من أوامر دينك سوى اجتناب الفواحش والمنكرات، وإقامة الشعائر التعبدية، وإعفاء اللحية، ولبس البياض.. وغير ذلك من مظاهر الإسلام، ولا تكد في هذه الحياة إلا بقدر ما يكفيك أنت ومن تعول، ولا تعطي إلا بقدر ما تأخذ؟!

نعم أنت لا تبادر هنا بالاعتداء على غيرك، فلا يصيبهم منك شر، إلا إنهم في الوقت نفسه لا يرون منك خيرًا.. وهنا دعنا نسألك: ما الفارق بينك- وأنت تكتفي بممارسة مبادئ العدالة الإنسانية- فيما تقدمه للوجود، وبين إنسان آخر يلتزم بما تُمليه عليه فطرته الإنسانية السوية من التعامل العادل مع الآخرين، ويؤدي أيضًا الشعائر والطقوس التي يُمليها عليه دينه الذي يعتنقه؟! هل ثمة فارق بينك وبينه في شيء، وأنت لا يمثل وجودك أي إضافة إلى غيرك ؟!

أم أنك ذلكم الشخص الذي يحمل من الإسلام اسمه، ويؤدي بعض طقوسه، إلا أن مبادئ العدالة التي يطلب من الآخرين أن يتحلوا بها عند التعامل معه، لا تجد إلى احتلال قلبه سبيلًا.. والشيء الوحيد الذي يحتل قلبه هو مصالحة فقط، حتى لو كانت على حساب الآخرين، أفرادًا، أو مؤسسات، أو جماعات، أو حتى مجتمع بأسره.. ذلكم الشخص الذي لا يقر معروفًا، إلا إذا كان يحمل له نفعًا ، ولا ينكر منكرًا إلا إذا كان يحيق به ضرًا . ذلكم الشخص الذي يهبط به سلوكه إلى فطرة لا تنتمي إلى الفطرة الإنسانية السوية من قريب أو بعيد.. إنما تنتمي كلية إلى فطرة أخرى.. هي الفطرة الحيوانية.

أم أنت ذلكم الكائن المشوه- ونعيذك بالله أن تكون كذلك- الذي هبطت فطرته درجات في دركات السفول، وحينها حقيق أن ينطبق عليه وصف ربه﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين:5)؟ ذاك الذي يمارس أفعالًا ضد من حوله(أفراد أو جماعات أو مؤسسات.. إلخ) بدافع الكبرياء الذي يورثه حقدًا وحسدًا.. يدفعانه إلى السعي للكيد والمكر والإضرار بالآخرين، لا لمنفعة تعود عليه، اللهم إلا التشفي منهم، والشماتة فيهم.. أفعالًا لا تسمح بها إلا الفطرة الشيطانية.. نعوذ بالله منها ومن شرورها.

وهكذا؛ فإن طرحنا هذا يعلن لكل مسلم أنه إذا ما تخلى عن ممارسة الإحسان إلى الوجود سيتخلى عن وصفه أنه (مسلم بحق)، حتى لو مارس العدالة والتزم بتأدية طقوس الإسلام وشعائره، وإذا ما تخلى عن عدالته سيتخلى حينها عن وصفه أنه

(إنسان بحق) حتى لو أظهر التزاما بطقوس الإسلام وشعائره، ويدخل في نطاق الفطرة الحيوانية. أو ما دونها.

قد يجادل البعض أن معرفة الشخص الذي يقترف السلوكيات التي تبعده عن إنسانيته قبل أن تبعده عن إسلامه، بأن هذه السلوكيات تجعل فطرته تستحق أن توصف بأنها فطرة حيوانية أو شيطانية، لن تكون رادعًا كافيًا له عن اقتراف تلك المسالك، طالما كان تلك المسالك تحقق مصالحه، وتمنحه مقومات الحياة الرغيدة التي يصبو إليها.

وهذه حقيقة يصعب إنكارها؛ إلا أن من يتخلى عن فطرته الإنسانية السوية عليه أن يعلم أيضًا أن خروجه عن تلكم المسالك العادلة هو قبول منه بإعلاء مبدأ المصلحة الذاتية على مبدأ العدالة، وهنا عليه أن يتذكر أن سيادة هذا المبدأ في مجتمعه لن تُؤمّن له استمرارية مقومات هذه الحياة الرغيدة.. فمن الطبيعي أنه سيصبح عرضة- في كل لحظة- لأن يسطو على مقومات وجوده الرغيد من هو أقوى منه وأشد بأسًا، ممن لا يقيمون مثله للعدالة - في التعامل مع الآخرين- وزنًا و اعتبارًا.

والواقع أن التهديد الذي يخلفه سيادة مبدأ المصلحة الذاتية، الذي هو مبدأ شريعة الغاب، في مجتمع ما، لا يقف عند تخوم فقدان جل أبناء هذا المجتمع لمقومات هذه الحياة الرغيدة، وإنما يمتد- على المدى البعيد- إلى تعرض أبنائهم، وأحفادهم لتهديد وجودهم ذاته، لأنه لن يكتب البقاء والاستمرار طويلًا لمجتمع تُفتقد بين أبنائه العدالة، وتسود – بدلا منها- شريعة الغاب.

وإذا سحبنا هذا القياس على واقع أبناء المجتمع العربي، سنجد أن سيادة العدالة في الحقوق والواجبات، والأخذ والعطاء غائبة لدى كثير منهم.. على نحو لا تخطئه عين، وما يحفظ جل هذه المجتمعات أن تخر ساقطة من على صفحة التاريخ، هي منسأة سليمان النبي الماثلة في النفط والديون﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ:14) وحينما تنتهي دابة الأرض- التي هي هنا المسالك التي يسلكها كثير من أبناء هذه المجتمعات، وتتنافي مع الإنسانية العادلة - من أكل هذه المنسأة.. حينها لن يحمي أحد أي مجتمع من السقوط...ذلكم المصير المحتوم.

وهكذا: فتخلي المرء منا عن مقتضيات فطرته الإنسانية العادلة هو أمر لا يخرجه من إنسانيته فقط، وإنما أمر يخرج مجتمعه- على المدى البعيد- من عِداد المجتمعات الإنسانية القادرة على الاستمرار والبقاء على صفحة التاريخ.

قد يقول قائل: لكن تظالم البعض وخروجهم عن مقتضيات الإنسانية كان سائدًا في بلداننا العربية منذ قرون خلت، ولم يواجه الإنسان العربي خطر الانقراض لغياب سيادة العدالة في الحقوق والواجبات أو في الأخذ والعطاء.

نقول: نعم لم يحدث ذلك، وما واجهه العرب سلفًا هو زوال الأنظمة غير العادلة والخاملة والخائرة التي كانت تهيمن عليهم: عندما تعرضت للغزو العسكري من قبل دول ذات أنظمة اجتماعية قوية ومتماسكة ومتقدمة علميًّا وعسكريًّا، وبقي نسل

الإنسان العربي على قيد الحياة؛ بما توافر له من مقومات مادية أولية محدودة.. إلا أن ثمة معطيات جديدة تجعل القياس على الماضي غير صحيح ..منها على سبيل المثال لا الحصر:

- تزايد عدد السكان على نحو غير مسبوق على رقعة الجغرافية العربية التي كانت المنتجات الزراعية والحيوانية والصناعات الأولية- سلفًا- تكاد تلبي الحاجيات الرئيسة لها. أما الآن فإن قدرة هذه الرقعة على التلبية الذاتية لتلكم الحاجيات باتت أمرًا محل شك.

- تزايد متطلبات الإنسان العربي الرئيسة التي أتاحها له التقدم التكنولوجي الذي أبدعه أبناء الشرق والغرب، واعتياده سهولة حيازة منتجات هذه التكنولوجيا بأموال النفط من ناحية، أو بأموال القروض والمساعدات المشروطة من ناحية أخرى. وهي أمول سيتوقف - في لحظة ليست بعيده- جريانها.

- تغافل الإنسان العربي عن إدراك ارتباط بقاء مجتمعه بحتمية العمل والكدح في المدرسة، والمعمل، والمزرعة، والمصنع، بما يمكنه من إنتاج ما يكفيه، ويغنيه عن الاعتماد في الحصول على مقومات بقاءه مما تزرعه وتصنعه سواعد أبناء الشرق والغرب.

- تغافله عن إدراك ارتباط بقائه بحتمية التوقف عن كارثة استنزاف ثرواته الطبيعية، مقابل سلع كمالية وترفيهية؛ يُنتجها له خصيصًا أبناء الشرق والغرب.

- وحتى لو نجح في التوقف عن استنزاف تلكم الثروات، وأنتج ما يكفيه ويغنيه عما ينتجه الآخرون؛ فإنه لن ينجو من تصارع الدول الكبرى الذي لا يتوقف، على تمزيقه و نهب ثرواته تلك، إلا

إذا امتلك القدرة على بناء القوة الذاتية؛ التي يحمي بها وحدة بلدانه وأرضه وثرواته من كل طامع.

ولا مراء أن غفلتنا -أو تغافلنا- عن كل هذه الحقائق يعني حتمًا أنه سوف يأتي يوم لن تستطيع فيه بلداننا أن تُؤمن لجل أبنائها المقومات الرئيسة للبقاء ككائنات حية؛ من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومركب، وغيرها من مقومات الحياة.. وهي المقومات التي لم يتح لدول الغرب والشرق توفيرها إلا عبر تربية أبنائها على إعلاء مبدأ العدالة في الأخذ والعطاء، والحقوق والواجبات، والموازنة بين الاستهلاك والإنتاج، وعلى العمل والكفاح المتواصل لبناء نهضة علمية وتعليمية وتكنولوجية متعاظمة في شتى مجالات الحياة.

وهكذا؛ فوضعية مجتمعنا العربي الراهنة المفجعة تفرض على كل عاقل أن يتساءل.. كيف يمكن أن نتجاوز هذه الوضعية، ونبني مجتمعًا عادلًا قادرًا على أن يُؤمّن -بقدراته الذاتية- مقومات البقاء لأبنائه ككائنات حيه في هذا الوجود؟!

وإذا ما أنجزنا ذلكم الحلم.، يحق لنا حينها أن نرتقي في تطلعاتنا ونتساءل تساؤلًا ثانيًا ألا وهو: كيف لنا أن نسمو بمجتمعاتنا العربية والإسلامية لتصبح مجتمعات محسنة للوجود.. حتى تكون بحق مجتمعات خير أمة أخرجت للناس؟!

والواقع أنه دون السعي الحثيث ،بداية، لتلمس سبل بناء الإنسان المسلم بحق ..لن يتسنى لنا ، ومهما طال الزمان، أن نحقق من تلكم الأماني شيئًا؟!

محتويات الكتاب

الإهداء 2
مقدمة 3

القسم الأول
السمات التي تمنح شخصًا ما وصفه بالإنسانية عن جدارة 10

أولًا: السمات التي تمنح سلوك الفرد - ككيان مستقل- صفة الإنسانية 18

ثانيًا: السمات التي تمنح الفرد كعضو في مؤسسة أو جماعة صفة الإنسانية 22

القسم الثاني 25
الخروج عن حدود العدالة كسمة للفطرة الحيوانية
أولا: خروج الفرد ككيان مستقل عن العدالة في تعامله مع الآخرين 25

ثانيًا : خروج الفرد عن العدالة كعضو في مؤسسة أو جماعة ما 28

35

القسم الثالث
الخروج عن الفطرة الحيوانية والدخول في الفطرة الشيطانية

أولًا: خروج الفرد ككيان مستقل عن الفطرة الحيوانية ودخوله في الشيطانية 37

ثانيًا: خروج الفرد كعضو في مؤسسة أو جماعة عن الفطرة الحيوانية ودخوله في الشيطانية 38

القسم الرابع: سمات الإنسان المسلم بحق 43

أولًا: سبل إحسان الفرد المسلم باعتباره كيانًا مستقلًا للوجود 61

ثانيًا: سبل إحسان الفرد المسلم للوجود كعضو في جماعة أو مؤسسة 68

وفي النهاية 72

شكر وتقدير

يطيب لي أن أشكر بداية من الأردن أستاذنا المفكر الإسلامي إبراهيم العسعس الذي كان تساؤله: هل الإنسان المسلم إنسان؟! الذي طرحه في كتابه" رصد الظواهر.. هكذا نحن" هو الشرارة التي انطلقت منها فكرة هذا الكتاب، كما أشكر الصديق المفكر والداعية الإسلامي الدكتور عايش لبابنه، والشاعر الدكتور هاشم السلعوس، والدكتور غالب شطناوي، والدكتور عصام أبو قاسمية، والأساتذة: أحمد الشرايري، رشا اليعقوب، عمار غزلان، آمنة الصمادي، سلام العمري، إسماعيل الوديان ، الفنان ضرار الطوالبة مصمم الغلاف.. ومن فسلطين أشكر د. أنس زاهر، ومن العراق أشكر د. علاء الدليمي، والأستاذ عماد النعيري.. و من تونس أشكر المهندس مصطفى العدواني... ومن مصر أشكر الفيلسوف الدكتور صلاح عثمان، والباحث في الفلسفة الدكتور جميل أبو العباس، والدكتور محمد حسام الدين أبو العلا، والدكتور وليد خلف الله، والكاتب الصحفي أسامه إبراهيم. والكاتب الصحفي شعبان خليفة، وغيرهم الكثير.. على كل جهد بذلوه في نقد وتقويم وتجويد وتطوير فكرة هذا الكتاب ومحتواه.. فجزاهم الله جميعا عني، وعن القراء الكرام خير الجزا

التعريف بالمؤلف

الدكتور محمود يوسف السماسيري مفكر وأستاذ جامعي مصري منشغل- بصفة أساسية- في دراساته وأبحاثه التي قدمها في مؤتمرات دولية عدة- بكيفية إعادة بناء الفكر الإسلامي على أسس معرفية جديدة، تمكنه من قيادة الأمة إلي الخروج من وضعية الضعف والتمزق التي تعيشها والتحرك بها نحو الوضعية التي تليق بها بين أمم الدنيا: كأمة الشهادة خير أمة أخرجت للناس.

لتحقيق هذا الهدف طرح نظرية- نشرت في مجلد ضخم- استغرق بناؤها ما يقارب من سنوات عشر، سنتان منهن في ألمانيا.

ولتفعيل هذه النظرية في أرض الواقع أنشأ- مع مجموعة من المهمومين بشأن الأمة مؤسسة" المجمع الدولي لإعادة بناء الفكر الإسلامي بالقاهرة. والدكتور السماسيري يعمل- بالإضافة لكونه أستاذًا جامعيًا- أمينًا عامًا لهذا المجمع.

للتواصل مع المؤلف

smasiry@yahoo.com

وعلى الفيسبوك حساب باسم : د.محمود يوسف السماسيري

https://www.facebook.com/mahmou66